الحرية .. هي الخلاص

« ان الله الذى وهبنا الحياة ...
وهبنا معها الحرية فى نفس اللحظة
ولنفس السبب
جيفرسون

كان من المقدور للانسانية أن تظل شيئا غير مذكور لو لم يستحوذ على قلبها هذه الحروف الوضاء للكلمة الساحرة الآسرة ـ الحرية ..

فلما وجدت بردها خاضت من أجلها معركة الدهر ـ ولا تزال تخوضها .. بيد أن لنشرع هذه المعركة قصة جديرة بالتدبر والامعان ..

انها لم تبدأ كما نحسب يوم الباستيل .. بل يوم بدأ الانسان القديم يحس ، ويسمع ، ويرى .

يوم بدا له ، وهو يتسلق الاشجار فرارا من السيول ، ويأرز الى الكهوف حذرا من الصواعق ، والوحوش . . أن الطبيعة تتحدى حريته : وتناوىء طموحه . ومضى يتلفت عن ايمانه وعن شمائله ؛ فلم يجد له نصيرا سواه . .

وانساب فى روعة رجع صوت بعيد مقبل من الازل :

لقد وهبناك الوجود ، ولن نمنحك بعده شيئا ؛ فناضل لتحيا . . أو استسلم فتموت . !

ولم يطل تلبثه وانتظاره ؛ واستبان له هدفه كفلق الصباح ومضى نحوه فى اصرار وعزم .

ترى أى هدف آثر واختار ؟

هو هذا ـ

- تأمين وجوده .
- واستثمار هذا الوجود .

أترانا بعد ملايين السنين نعرف ؛ أو ننشد سوى هذا الهدف المزدوج الجليل . ؟

ولكن ضد من ـ ذهب الانسان القديم يؤمن وجوده . ؟

ليس ثمت سفاكون يحذرهم؛ ولا اقطاعيون يتهيبهم ..
نعم ، ولكنه ألفى نفسه وجها لوجه مع الوحوش المتفحمة تعيش فى الارض باحثة عن ذلك النزيل الجديد لتملأ بأشلائه أمعاءها ..

ومن هنا بدأت قصة البغي والمقاومة .

وهنالك أملت الوحوش الباغية على الانسانية الناشئة شروطها دون أن تترك لها حق الاختيار .

فأما أن تختفى فى الجحور والمغارات فتسلم ؛ واما أن تسير على ظهر الارض ، وتمشى فى مناكبها فيفترسها كل ظفر وناب ..

● تماما كما يصنع اليوم المستبدون مع رعاياهم .. فأما ان يتلفعوا بالصمت والتسليم؛ فيسلموا .. واما أن يحترموا آدميتهم ؛ وينشدوا لانفسهم حقوق الآدميين ، فتدوسهم القوة ، ويهصرهم النكال ..

***

ماذا صنع الانسان؛ والوحوش تجوس خلال كهوفه .. هل قبع فى ظلامها .. أم خاطر من أجل حريته .. ؟

لقد خرج بحوله المتواضع ؛ وقوته الناشئة .. وصاح بالوحوش الوقحة صيحة التحدى .. وكان ذلك الاقدام ثمرة ادراكه لقيمة الحرية .

لقد رآها ضرورية لبقائه ، وآثر أن يموت فى الافق المتراحب موتة جريئة باسلة .. على أن ينفق فى جحوره نفوقا بطيئا ..

● تماما ـ كما يحدث اليوم فى الشعوب المقهورة حين تدب فيها شجاعة اليأس ، فتغامر بحياتها مغامرة تفضى بها الى الحياة ..

وكانت خطة الجماعة الانسانية الناشئة أن تتقدمها طليعة

فدائية ـ ليس مهمتها أن تنتصر بل أن تموت .. ولكن بعد أن تكون قد فتحت الطريق أمام الموكب الزاحف الواجف .. وقد كان .. وفي كل رحلة من رحلاتها المتساوقة كانت لها طليعة تلتحم مع الذئاب والوحوش التحاما مرا ، ثم يسقط أفرادها صرعى لتكون جثثهم جسرا تعبر عليه الجماعة الى هدف جديد .

وذات يوم ، والطليعة راكضة دمدمت السماء برعدها ورجومها فازدادت الطليعة ركضا واقتحاما .. وتحدت الرعد والصواعق والرجوم ، وأبت أن تدع الارض التي وقفت عليها حتى تسلمها للزاحفين على أعقابها ..

❁ تماما كما يصنع اليوم رواد الجماعات المستعبدة .. اذ يمضون أمامها ، ويرسمون لها الطريق بأفكارهم ،وأقلامهم فيصرعهم البغي ـ ولكن دماءهم المراقة تبقى وهجا يرسل على طول الطريق ضوءه وسناه ..

وذاق الانسان طعم الحرية؛ وأحسها احساسا مثيرا فجر فيه البصيرة والخيال

وكان من أعضاء الجماعة الانسانية الاولى من انطبعت فيهم ملائق الوحوش من طول ماعاشروها وكابدوها .. فما أن استقرت الجماعة في مدنها وقراها حتى كانت هذه الطبائع تتحفز للظهور والسموق بعد أن انهت فترة الاختمار .. وكانت الوحوش قد غلبت على أمرها ،

ودالت دولتها .. فانطلقت هذه القلة المحاكية الباغية تمثل في جماعتها ـ دور البأس الوحشي المنقرض ، وتقمصت الحيوانية المفترسة أجسادهم كي تعمل عن طريقها .. فشنوا على اخوانهم الغارات .. واختطفوا الناس واتخذوهم رقيقا .. ثم احتوشوا الضياع ؛ وأقاموا الاقطاع .. ثم شادوا الامبراطوريات ؛ وجعلوا أنفسهم أباطرة وفراعين ..

***

هذا تصور ؛ أو تخيل لنشوء الصراع بين الاستبداد والحرية

وتطوره : لم يكن لناعنه غنى . . ليعلم أولئك الذين يسمون الشعوب المقهورة اليوم سوء العذاب انهم ليسوا سوى امتداد معنوى لوحوش الغاب وهم غرباء عن الانسانية دخلاء عليها ووظيفتهم في هذه الدنيا تعويق التقدم الذى يعتمد على الحرية وانطلاق الكرامة الانسانية من وطأة المهانة . . وفرض قيود التبعية والخضوع عن البشر . .

ولقد سارت المعركة مع وحوش آدم . . كما كانت تسير من قبل مع وحوش الغاب .

وكان كل ظفر تحققه الجماعة حافزا الى جهاد أشد وأعظم . . ولكأنما كتب عليها أن تودع الراحة الى الابد ، وألا تضع العصا عن عاتقها حتى تقضي لنفسها أمرا . . ترى ماذا كان حظ آبائنا الاقدمين فى هذا النضال . ؟

لقد كان عجبا . أى عجب . ولكن ليس من طبيعتنا ، كما انه ليس من صالحنا أن نتباهى بعمل أهل القبور . وحسبنا فقط أن نذكر ، ان بعض مؤرخي التطور الانساني يقررون ان أول حركة قامت فى الدنيا ضد الاستبداد السياسى ، والظلم الاجتماعى كانت فى مصر أيام الفراعين . . وعن مصر أخذ العالم القديم الدرس فحذقه ، وأبى أن ينساه . .

وكان لشعب مصر أيام حركته تلك . . صلاة يتلوها فى المعابد .

ـ أيتها الآلهة .

ان فرعون يذلنا . . ويضربنا

والارض التى يقول انكم وهبتموها له ترهقنا . .

ـ أيها الآلهة .

اعطونا راحة . . .

واعطونا أرضا . . !

أن ظهـــورنا قد انحنت ..

فأقيموها . ..!

ولكأنما سرت هذه الترنيمـةفي وجـــدان الانسانية بصورة لا تزال مستسرة خافية ولكنها متطورة نامية .

فلقد وجدنا بعض الشـعوب المنتفضـة تصلى ابان انتفاضها فتقول :

قفوا ــ ياعبيد الارض . .

قفوا ــ ياعبيد الجوع..

سيروا مع البركان . .

البركان الذى سيأتى عـــلى القديم ، ويمحو الماضى جميعه .

سيروا على الشوك. .

سيروا على الجليد ..

وقوفا وقوفا أيها العبيد.

ان عدو لنـــا أراد الدمارا ولارض نعـــزها اقفـــارا

فسنلقاه بالجواب الاشـــد القوى الصدى كقاصف رعد

كسنا البرق يخطف الابصارا

لكن التطور يستحدث وسائله ويجدد أدواته .. فبعد أن كان لايحقق أغراضه الا بالقوة والعنف صار من الممكن تحقيقها بالتحول والاقناع والاناة ..وأصبح يعزف عن الدم ــ ويبحث عن الزهور. وينقزز من الموت ويريد السلام

واذا كانت مصر اليوم وغير مصر من الامم المغلوبة ــ تريد الحرية وتسعى اليها ..فأتيحوا لها أيها الحاكمون أن تسـلك طريق الزهـــور ، والحب ،

ولكي ينشأ تعاون وثيق بيننا جميعا ؛ حاكمين ومحكومين ، نحقق عن طريقه أغراضنا المتمثلة في الحرية والعدل ؛ فالخطوة الاولى أن نقتنع بفائدة الحرية وحتميتها

أتريدون أن تتصوروا قيمة الحرية .. ؟

تصوروا اذن قيمة الانسان. وليس يكفي أن نتصوره تصورا دينيا بمعنى انه خليفة الله في الارض ؛ ومنفذ مشيئته فيها . بل علينا أن نتصوره مع ذلك تصورا آخر واقعيا يبرزه في الدور الذي أداه ولا يزال يؤديه في عمارة الكون ؛ وخلق جميع صنوف الحضارة المتبدية فيه

هذا الانسان الذي تعلم وعلم ؛ وبني وشاد ، واخترع وأبدع ، وفكر وتفلسف ، وانتقل بنفسه وبالدنيا معه . من بدائية فجة غريرة الى رقي عارم ومدنية شامخة ..

هذا الانسان ماكان ليصنع من كل ذلك شيئا لولا الحرية. ويوم كان يجد حريته كانت تجده الحياة . ناصبا فيها حائا لها .. فاذا فقد الحرية ؛ افتقدته الحياة ليخصب بوارها فلا تجده ولا تراه .

ولقد أتى على الفكر الانساني حين من الدهر وضع فيه تحت وصاية غبية ؛ ورقابة عمياء ، فلم يكن ثمت أدب ولا فن ولا اختراع . .

ومثل واحد من مئات المثلات يؤكد هذه الحقيقة ويزكيها .. فحين اخترع المجهر . . « ميكرسكوب » وقف خصوم الفكر والحرية من رجال الدين المسيحي وقالوا :

هذا كفر وهرطقة وسلطوا عدسته على جثمان برغوث .. فرأوه ضخم الجثة ـ ففزعوا ؛ ولعنوا الشيطان الرجيم . . ثم حرموا استعمال المجهر لانه يغير خلق الله ؛ ويضاعف أحجام الاشياء .. !

لو بقيت هذه الآفات تسيطر على الفكر ، وتضطهد حريته ، أكان مانراه اليوم من حضارة غامرة سيكون .. ؟

ويوم وقف «ابن رشد» يعلن نظرياته ، ويضع « الحقيقة الفلسفية ازاء الحقيقة الدينية » وقف خصوم الحرية والفكر من رجال الدين الاسلامى وأغروا به الخليفة وحكموا بخروجه على الدين .. ودعوا لمكافحته كما تكافح الجرائم والآثام .. !

فلو بقى هذا الضباب جاثما يسد الافق ؛ ويحول بين الناس والحرية أكان طريق المعرفة سيمتد أمامها لاحياء هذا يغمره مواكب النهى والمشاعل .. ؟!

ماأروع الآية التى قالها جيفرسون :

« ان الله الذى وهبنا الحياة ـ وهبنا الحرية معها ـ

فى نفس اللحظة ؛ ولنفس السبب »

فى نفس اللحظة ـ لان الحرية روح الحياة ؛ ولايتأتى أن يكون لها بدونها وجود .

ولنفس السبب ـ لان غاية الحياة أن تنطلق محققة الغرض من وجودها ، ومنفذة مشيئة الازل الكامنة فيها ..

والحرية كذلك .. بل هى الاداة المفردة لكل ذلك ـ ومامن تطور مشكور نافع أخذ بيد الاوضاع القديمة للناس فى السياسة والعلم والاجتماع الا كانت الحرية وحدها رائده وحاديه ..

* *

الطمأنينة .. أم الحرية ؟

ولكن الحرية مطلب جليل ؛ وهى لاتمنح يدها كل لامس ـ والايدى الناعمة الرخوة حين تمتد اليها لتنالها ؛ ترتد مقبوضة على زراية وهوان .. ولايبلغها سوى الصناديد البواسل ،

القادرين على التوقل والتسور والطموح ..

وقديما قال شاعر عربي .

لابد للعاشق من وقفة ما بين سلوان وبين غرام

فلنسأل انفسنا قبل المسير

أتريد الحرية بحق .. ؟ انها لاتأتي وحدها .. بل تحف بها حشود من المخاوف والاخطار .

ان مهرها غال لمن يطلبها .. انه الكد والتعب ، والمثابرة وسماحة الافق وتمكن الاخلاص وهما أشق مافيه ..

وهناك في الوجهة المقابلة للحرية ـ توجد الطمأنينة ..

طمأنينة الجماد ؛ وسكينة القبور ..

وبهذا النوع من الطمأنينة نستطيع أن نعيش هادئين .. لانتألم ؛ لاننا لانحس ..

ولانشكو ، لاننا لانشعر .

ولا نقلق ، لاننا لا نطمح ..

ولانخاف ، لاننا لانخيف ..

أفنختار الحرية ، ومعها أثقالها ..

أم نختار الطمأنينة ؛ ومعها أغلالها .. ؟

لعل من الخير أن نستهدي بأولئك الذين اجتازوا نفس التجربة من قبلنا ..

فلنصغ لرائد كريم هو « فرانكلين » يقول :

« ان الذي يفرط في مبادىء الحرية وجوهرها ليشترى بها قدرا تافها من الطمأنينة الموقتة لايستحق الحرية ؛ ولا الطمأنينة » .. !

وهذا حق .. وهو ليس فقط غير مستحق للحرية والطمأنينة بل لن ينالهما أبدا ولن ينال احداهما ـ لان الطمأنينة المنشودة

على ذلك الهوان لاتكون جديرة باحترامها ؛ ولا تفيؤها ..

واذا كان شعبنا اليوم قدفقد الحرية ؛ فلانه باعها بالطمأنينة .. ثم اكتشف آخر أمره انه خسر الاثنين معا ـ الحرية والطمأنينة .

* *

اليسنا أحرارا .. ؟

ولكن كيف نزعم اننا فقدنا الحرية . ؟

هل هذا واقع ،أوهو ادعاء وتطير .. ؟

واذن فعن أى معنى تعبر هذه الحضارة ؛ وهذا الدستور ، وهذا البرلمان ، وهذه الصحافة .. ؟

أليست جميعا مظاهر صدق لما فى بلادنا من حرية وسيادة .؟

وقبل أن أجيب ـ نعم ؛أو لا ـ دعونى أقص عليكم قصة :

يوم كان « وشنطن »يقود موجا كالجبال من جماهير المقاتلين فى حرب الاستقلال ؛ برز له جندى وصاح فى انفعالات صاخبة :

ـ فى سبيل ماذا تقاتل ـ ؟

فأجابه وشنطن:

ـ فى سبيل الحرية . .

وعاد الجندى يسأل :

ـ وما الحرية التى تستحق كل هذا العناء ؟ .

فأجابه :

ـ هى أن تقف هكذا ـ مرفوع الرأس ؛ بارز الصدر ،وتصيح ملء فمك ـ أنا أمريكا . . وأمريكا بلادى ..

وعلى حين غفلة من القائد العظيم انتفض الجندى كالمارد ، وضرب

الارض بقدمه ، ورفع رأســـــه وصاح :

ـ أنا أمريكا ـ وأمريكا بلادى

ثم استدار الى « وشـنطن » وقال له :

ـ ها أنذا قلتها ٠٠ ففيم ، مرة أخرى ، هذا العنـاء وهذه الدماء ٠٠٠ ؟!

وهناك صوب الجنوب ، كانت المدفعية الانجليـزية الباغية تدك حصـــون المحاربين ، وتصليهم ســـــعيرا ٠٠ ودمدمت أصداء طلقاتها العاوية على سمع الجندى المشدوه فقال له وشنطن :

ـ أتسمع هذه الدمدمة ٠٠؟

ان المدافع الانجليزية تناديك

كذبت . . كذبت . . كذبت

لســت أمريكا ٠٠ وليســت أمريكا بلادك ٠!

ويوم تقـول كلمتك ، ثم لا تتحداك تلك المدافع ، ولا تكذبك هذه الطلقات ، فأنت يومئذ حر وهذه هى الحرية ٠٠!

***

والآن ـ هل أنت مصر ـ ؟ وهل مصر بلادك ٠٠؟ هل تمثل وطنك فيك كيانا حيا بكل مافيه من خـــير ، وبر ، وفـرص ، وامكانيات ٠٠؟

وهل لك من الامر فيه شىء ٠؟ أم أن الامر كله للناهب الظافر ، والمستعمر الدخيل ٠٠؟ هل أنت مواطن ـ تمشى على أرضها سيدا عزيزا ٠٠٠؟ أم أنت تابع يأخذ بخطامك اســـــتبداد مطلـــق واستغلال دنىء ٠٠؟

هل تستطيع أن تقول : لا ٠٠ اذا نيطت بها كرامتك ٠٠؟ وأن تقول : نعم ٠٠ اذا نيطت بهـا مروءتك ٠٠؟ هل تقدر أن تقوم فى بلدك اعوجـاجـا ، أو تنهنه بغيا ، أو تمس القـــديم العفن

بتغيير وتعمير ..؟ اذا كنته فانت حر .. واذا لم تكنه ، فانت شيء آخر .. أنت رعوية نافهة ، وعبودية مسخرة .. !

***

ان بداية خلاصنا أن نعرف ، لا أن نخدع .. وأسباب المعرفة عندنا كثيرة ، وعناصرها محشودة ـ تفتح أعيننا على حقيقة صارخة تؤكد أننا رعايا في « عزبة » .. لا مواطنون في دولة ..

وحسبنا لذلك ـ مأساة الشيوخ ـ ..!

وهي مأساة لاتحمل وزرها الوزارة .. بل السياسة .. ولا الحكومة .. بل روح الحكم ..

فروح الحكم عندنا توجهها الرغبة في السيطرة ، وفي الانتقام والعبث ...

روح الحكم ، ونعني بها السلائق التي تجعل من السلطة التنفيذية سلطة ارهابية تعز وتذل ، وتولي وتعزل ، هذا الروح الماجن بماله من تقاليد وضراوة هو الذي لطم الكرامة القومية لطمة لم يكن منها بد ، ليعلم الذين لايعلمون .. أننا سوائم ، لامواطنون ..!

وهذه حقيقة يعرفها الناس ، ولم يك ينقصها لكي تبلغ أوج اليقين سوى أن يصدر بها مرسوم ، وتنشر في الوقائع المصرية ..!

وقد لايعنينا أن يظل الشيوخ « المشلوحون » أعضاء أو أن يخرجوا ...

ولكن الشيء الذي أرجف على سكينتنا هو أن يجيء هذا الاجراء عقابا لهم ، وتنكيلا بهم من أجل استجواب تساءلوا فيه : عن أموال للشعب ، كيف انتهبت ..؟ وأرواح بريئة كيف زهقت ، وبيعت حياتها اليانعة للشيطان!

وسنرى خلال سيرنا مع هذه السطور مايجعلنا نرتد عاجزين عن الاقتناع بأن لنا في بلادنا حقوقا ترعى ، وحرمات تصان .

لكنه لا يأس .. فلا بد من سنها ... وان طال السفر . .
وسنلاقي الحرية وتلاقينا .. في مهرجان يضج بأجراس الفوز ،
ويفعم بزهور الانتصار .

لكن علينا أنفسنا ... ان معركة التحرير تبدأ منها ، وفيها

***

تحرير انفسنا من انفسنا ..

قلنا : انه لا جزع على حريتنا في مستقبلها ، فهي آتية لاريب فيها .. ولا خوف عليها من أعدائها .. بل الخوف عليها منا أنفسنا ..

ماذا يخاصم الحرية ، ويعترض سبيلها ..؟

انه الاستبداد ... وهذا الاستبداد نفسه أقرب الطرق الموصلة الى الحرية والاستقلال ..!

فكر قليلا ... تجد الامر كذلك .. فنحن كلما استبد بنا الجوع ، الححنا في طلب الطعام .. وكلما نفحتنا سبرات البرد الححنا في طلب الدثار .. وهكذا كلما لفحنا هجير الظلم والاستبداد ، اندفعنا في تزاحم الى ظلال الحرية ، وروضاتها المونقات .. ان الظلم من صنع المظلوم ، قبل أن يكون من صنع الظالم .. وعندما تشتد وطأته تبدأ نهايته .. لان الذين كانوا يسمحون له بالبقاء وتتقاما أمامه محاولاتهم ، يضيقون به ذرعا وتواتيهم شجاعة اليأس ، فيخاطروا من أجل الحرية مخاطرة تحطم عنهم الاغلال ...

لقد وقف « أتاتورك » يوما خطيبا فقال :

ليس على وجه الارض شيء اسمه الظلم .. فهذا الذي وقع عليه ما نسميه « ظلما » اما ان يرفضه ، أو يتقبله ..
فان رفضه ، فقد منع وجوده .. وان قبله ، وخضع له ، صار لما وقع عليه مستحقا وأهلا .. فلا يكون مظلوما ..!

وهذا كلام جليل صادق . واذا عجزنا عن تقبله ، وتصديقه فلن نعجز عن تصديق «فولتير» وهو يقول :

ـ ما رأيت كالطغيان شيئا يسوق الناس الى الحرية سوقا عنيفا ـ !

لا بأس على حريتنا اذن من جلاديها .. ولكن الخوف عليها منا وحدنا ..

وقبل أن نطلب الى الآخرين احترام حريتنا ، يجب أن نبدأ نحن فنحترمها ..

هل يحترم المجتمع لنفسه حرية نفسه ..؟
ما أثقل عبء الاجابة علينا ونحن نقول : لا ..

فالحقيقة أننا نحن الشعب لم تبلغ بعد الدرجة التى نعامل الحرية فيها بأضعف الايمان ..

ولكن لن ندع الحاكمين يتوسلون بهذا الى منع الحرية عن الشعب ، فهو اذا كان لم يقدرها قدرها ، فلأجل أن حاكميه وقاهريه له يتيحوا له فرصة تذوقها ، ومعرفة قيمتها ولزومها ـ ويوم يذوق سيعرف ـ ويوم يعرف سيفديها بمثل ما افتداها به السابقون ..

وكتابنا هذا محاولة لايجاد تفاهم بين الحرية والشعب .. وبينها وبين الذين أسرفوا على الناس وعلى أنفسهم بالبغى والاستبداد .

ولن ننسى ونحن نتحدث عن الحرية أن نقول : انها اذا لم تكن كبتا وقهرا .. فهى أيضا ليست استهتارا وفوضى ..

ولعل خير ما يصور جغرافيتها هذه القصة الفرنسية :

كان أحد الرجلين يجلس على أريكة باحدى الحدائق العامة ، وعن يمينه جلس الآخر ، وليس بينهما معرفة ولا الاف ..

وتثاءب الجار وبسط ذراعيه وهو يتمطى ، فصكت أطراف أنامله ذؤابة أنف جاره . فغضب ونبه المتمطى للياقة المطلوبة .. فأجابه الآخر : أنا حر .. !

فقال له صاحبه : نعم أنت حر .. ولكن حرية يدك تنتهى حيث تبدأ حرية أنفى ..!

وذهبت مثلا بليغا .. فحواه أن حريتك تنتهى حيث تبدأ حريتى . وحريتى تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين ـ والآن ـ لنذكر هذا جيدا ..

ان المواءمة فى تمرس الحرية بين افراد المجتمع بعضهم مع بعض ، وبين المجتمع والدولة هى خير ما يحقق لنا منافعها جميعا .

فواجب الجماهير اذن حيال الحرية هو :

ـ أن تؤمن بقيمتها وضرورتها

ـ وأن توائم بين الحقوق المشتركة فيها ..

والطريق الى الاول ـ أن تفهم انه لا خطر من الحرية على الدين ، ولا على الفضيلة ، ولا على مصالحها .. وأن الخطر على هذه جميعا انما يهب من ريح الكبت ، وضيق الافق ، ونضوب التسامح ..

والطريق الى الثانى ـ أن يمارس كل فرد حريته فعلا ، وفورا ، ودائما ـ وسوف نخطىء ويبقى بعضنا على بعض ولكننا أخيرا سنتعلم من الخطأ ، ونفيد من التجربة وتصحو فينا فطرة الحرية فتمضى سوية مستقيمة لا تضل ، ولا تتجانف لعدوان ..

وواجب الحكومة تجاه الحرية ان تكون فى خدمتها ، وان تصوغ قوانينها ، وتمارس سلطتها على وجه ينمى الحرية لا يضائلها .

والآن ـ لنمض معا ـ مستعرضين الحرية فى أزيائها

المتعددة ـ مبتدئين بما بدأ الله به ..

لقد تكلمنا في الفصل الاول عن « الغرائز » .. هذه التي خلقها الله لتكون طاقة دافعة ، فاستحالت بفضل الظلم والجهل الى أغلال معقدة ، وعوائق مانعة .. والغرائز هي القوى التي نظم الله حولها الحياة الانسانية بكافة ضروب نشاطها ، بل ناط بها وجهة الانسانية نفسها ..

واطلاق سراح الحرية رهن باطلاق سراحها فمشكلتنا تتمثل فيها ، وخلاصنا يبدأ منها

ونجد الآن ان وراء كل غريزة مضطهدة حرية مضطهدة كذلك ، والربط بين الحرية والغريزة ليس من صنعنا ـ بل من صنع الله ـ وهو قمين أن يوفر علينا كل محاولة سفيهة لقمع الحريات .. لأنها على هذا النحو ليست شيئا هينا يقضي عليه البطش .. بل هي وثيقة الصلات بأعرق وأعمق ما في الانسانية من قوة وأصرار . وهي الغريزة ..

واذن ـ دعوها فانها مأمورة .!

حين نواجه حقيقتنا المنعكسة على مرآة الحوادث الماثلة ـ نجد شعبا مخفقا .. يدور حول وهم وعجز ـ حتى اذا أدركه التعب خر على الارض ليطويه سبات عميق .. وأعجب ما في أمتنا وجماهيرنا أنها على بينة مما تريد أن تفعل .. ومع هذا فقد عميت عليها السبل ، ومضت تضرب في كفاحها ودنياها على غير هدى ..!!

ترى ـ ماذا يضللها ، ويخلد بها الى الارض ، والحيرة والاستسلام . .

أهو فقط ظلم الظالمين ..؟

اذن ، فما بالها لا تتحرك حين تمر بها فرص يرخى فيها

المستعبدون الزمام ..؟ وتكتفي بأن تململ تململا غامضا ، لا ينطلق بها الى هدف واضح .. وتخرج انفاسها الكظيمة المضغوطة فيسمع لها خوار .. ثم فجأة تهجج ، وتأرز الى الوتد صابرة ، وربما شاكرة ..؟

ان آفة الشعب في دخيلته في نفسه الباطنة .. وكل جهد يبذل للاصلاح بعيدا عن نفسه ، فهو جهد باطل مضيع .. ان في أعماق ضميره شيئا يدعوه لمقاومة الحياة .. وفي أقصى نفسه مرارة ويأس ..

وفي وجدانه شعور الريبة بذاته ، وامكانياته ، ومستقبله وفي عقله الباطن جبن ، وهوس ، وانقسام — وشخصيته كلها ليست أكثر من أطار يضم هذه المساوىء جميعا — ومرد ذلك لا جرم ، اطفاء نور الحياة فينا وتحطيم ارادتها بمصادرة منابعها وردمها ..

فلنطلق غرائزنا هذه .. وهي ستهدي نفسها ، وتهدينا معها الى الحرية والسيادة .

ان الحرية أجمل وأكبر من أن يضمنها قانون أو دستور او حكومة .. واذا لم تستقر جذورها في قلوب المواطنين فلن يكون لها أغصان ولا ظلال ..

فلنبدأ من هنا — من غرائزنا المصفدة المضطهدة الحاقدة — نفض عنها قيودها ، ونحطم سلاسلها .

ولن نتحدث عنها جميعا ، كما رأيت قبلا — وانما نسوق الحديث عن بعضها الذي له بحياتنا ، كشعب مكافح ، أوثق الصلات ، وله بحريتنا كأمة مستعبدة أدق الوشائج ..

غريزة الغضب — حرية النقد ..

بينا في الفصل الاول أثر اضطهاد هذه الغريزة في انطوائها على حقد ، واندمالها على تربص .

والحكومات حين تحاربها ـ فسلاحها القانون . . فقانون يحرم التظاهر ، وآخر يحرم الاضراب وثالث يحرم النقد والكلام . .

والحقيقة أن وضع القوانين سهل ميسور ، وقد يكون تنفيذها كذلك سهلا وميسورا . .

وليست المشكلة فى وضعها . . وانما فى جدواها . . ان القانون هنا ـ يحارب الطبيعة . . . يحارب الغريزة . . يحارب قانونا آخر . وضعه الخلاق العظيم ، وصقلته القرون . . وهو لذلك مغلوب على أمره ، ولو بعد حين

وغريزة الغضب تتسرب طاقتها تسربا مهذبا مأمونا فى المجتمعات والامم بتمكينها من حرية النقد ـ فكبت هذه الحرية فى شعب تحد لقوة أصيلة فيه اصالة الانسانية نفسها ، وتصفية لطاقة تلعب دورا هاما فى بناء الشعوب .

وللعالم الجليل « هارى أمرسون فوزدك » فى كتابه « (١) كيف تكون رجلا حقا » كلمات هادية مضيئة تكشف لنا عن قيمة الغضب الذى تكمم حكوماتنا أفواهه ، وتضاعف قيوده . فلنستمع اليه :

« . . والنزوع الى الخصام من أعمق الحوافز العاطفية فى الطبيعة الانسانية ـ والميل للعراك لازم لبقاء الحياة الانسانية وتقدمها ، وتترجم روح القتال نفسها بالعمل الشاق ، وبالشجاعة فى مواجهة المصاعب الشخصية ، وفى كل مظاهر الهجوم على المساوىء الاجتماعية المستقرة .

« . . ولكننا اذا أرخينا الحبل لهذا الحافز العاطفى الذى لا غنى عنه ـ كانت النتيجة مدمرة ، فان البغضاء المزمنة ، أو امساك الحقد فى القلب يمزق صاحبه ـ والغيظ الشديد قد

---

(١) مجموعة مجلة المختار ـ عام ١٩٤٥ ـ

يورث مرضا كما تفعل الجرثومة .

« .. واذا كان من سوء حظنا أن يكون لنا أعداء فان شر ما يمكننا أن نصنعه لا للعدو ، بل لأنفسنا ـ هو أن ندع الغيظ يستقر ، والكراهة تزمن ..

« ـ حين لامت سيدة سابراهام لنكولن ـ على عبارة كريمة قالها عن أهل الجنوب قائلة له :

« كان الاولى بك أن تتمنى القضاء على أعدائك .. أجابها وهو موفور الصحة العاطفية والاخلاقية ، ماذا تقولين يا سيدتى ؟ ألا ترين أنى أقضى عليهم حين أجعلهم أصدقاء لى؟»

أفلا نستطيع ـ حكومة وشعبا، أن يكون بعضنا لبعض كابراهام لنكولن مع أهل الجنوب فتقضى الحكومة على الجماهير المنتفضة باتخاذها صديقا ..؟

ان السبيل لذلك متمثل فى اطلاق حرية النقد فهى الانفعال السامى لغريزة الغضب ..

وان الجماهير فى بلادنا لتعامل معاملة القاصر .. أو معاملة الايتام فى مأدبة اللئام ـ فهى تسرق ، وتضرب وتباع مصالحها ثم يحرم عليها أن تقول لظالميها، وسارقيها ، هذا حرام ..!!

وهل يمكن أن تحترم أمة أو تقدس ، وهى لا تأتمر بمعروف، ولا تتناهى عن منكر .؟

ان الدستور يعطى الامة هذا الحق ـ والقائمون على تنفيذ الدستور يسلبون هذا الحق .!

والشعب والحكومة شريكان فى اقتراف هذه الجريمة . فكلاهما يرفض أن تنقد شعائره ونظمه وتقاليده ـ وحين أنقد أنا ، أو أنت ، طغيان الاستبداد الذى يطأنا بقوائمه الغلاظ .. وغباء الحكومات وسفهها وسوء استعمال سلطتها .. تلف حول عنقك حبال الاتهام بـ « قلب نظام الحكم »

أفيكون كل نقد لمساوئنا السياسية والاجتماعية قلبا لنظام الحكم ..؟

ألا فلنتدبر هذه الحقيقة جيدا ..

لقد كانت الديموقراطية يوم بزغت « قلبا لنظام الحكم » بل لنظام الدنيا جميعها . ثم صارت اليوم مهوى أفئدة البشر جميعا

وفى مصر بالذات كانت المطالبة بالنظام النيابى خيانة وقلبا لنظام الحكم . ثم اذا هو اليوم مناط الامل والرجاء ..

وكانت الحركة التى قادها الشيخ الشرقاوى ، والسيد عمر مكرم لتنصيب « محمد على » مؤسس الاسرة العلوية ، على مصر . كانت هذه الحركة يومها خيانة للوالى القائم ، وقلبا لنظام الحكم ..

لذلك نرى خورشيد باشا يخاطبهما عندما طالباه بالتنازل باسم الشعب قائلا :

« .. انى مولى من قبل السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين .. » واتهمها بالخيانة واتهم الشعب كله ـ الفلاحين ـ بمحاولة قلب نظام الحكم .. !

ولكن الفلاحين .. أصروا على أن ينالوا شرف هذه الخيانة العظمى ، ووقعوا العريضة التى رفعت للباب العالى طالبين فيها تولية « محمد على باشا »

وهكذا نلاحظ أن كل قديم عفن يتهم القوى البازغة التى يثمرها الوعى والتطور بالخيانة العظمى وقلب نظام الحكم ..!

أيريد المرجفون بهذا الاتهام أن يفهمونا أنه لا يتم قط تحول نافع الا على أكتاف الخيانة العظمى ..؟

أو فليوضحوا لنا مغزى هذا الارجاف .. ؟

اننا جميعا على يقين بأن ولاية محمد على باشا ، كانت فى أوانها

انقاذا للبلاد من فساد كبير .. ونهض هذا الاعتقاد فى قلوب زعماء الشعب وعقولهم فعملوا وفقه ـ ولكن الحكم القائم يومذاك فسر عملهم المجيد هذا بانه جريمة وانتقاض ..

افئن حاولنا اليوم تهذيب حكمنا ، واستحداث النظم والقواعد التى تلائم تطورنا وطموحنا ، وكان من وسائلنا ذلك النقد الذى يستهدف البناء والانشاء .. نجابه بنفس الاتهام التقليدى ـ الخيانة ـ وقلب نظام الحكم ..؟!

***

ان الحكومة تسوء نفسها كثيرا وتسوء بلادها حين تزجرنا عن النقد وتمنع عنا حقنا فيه .. وهى اذ تسكت أقلامنا ، وتخنق همسنا ـ تغرى بنفسها وببلادها الناقدين الاجانب الذين يكتبون عنا مالو مزج بماء المحيط لتركه آسنا عكرا ...

وعندنا مثل لذلك ـ الكاتب الفرنسى « كوكتو » .. لقد استضيف فى بلادنا ـ وكان من حسن حظ مصر أن يهبط «كوكتو» فى ضيافة فتى مترف حديث عهد بميراث ضخم سمين .. فبسط للضيف موائد الكرم الباذخ تنوء بما فوقها من مطاعم ومشارب .. وهيأ له الكثير الطيب من الليالى الحمراء التى يجاهد فيها المترفون جهادا مبرورا .. !

ولم ينس « كوكتو » وقد جاء مصر ـ ان يرجو مضيفه كى يمكنه من رؤية «الحلقة المفقودة» فى تاريخ الانسان ـ تلك التى تتمثل فى ملايين الفلاحين والصعاليك المضرجين .. وعلى هذه النثارات الآدمية ركز « كوكتو » عدسته طويلا .. فوعى كل شىء ، وعرف كل شىء .. !

ولما عاد الى بلاده فرنسا .أخرج كتابه المعروف « فى بلاد معلهش » .. !! ولم نر هذا الكتاب طبعا ، فقد صادرته حكومتنا الرشيدة .. صونا لسمعة مصر أمام اهل مصر .. !

اما العالم كله فقد قرأه وتلاه . . ومثـــل « كوكتو » آخـــرون وآخرون . .

والعجيب ان حكوماتنا خارقةالقدرة فى محاربة النقـــد ، فهى لا تخرســـه داخـــل حدودهـــافحسب ، بل تتعقبـــه خـــارج الحدودايضا ــ ولكل بلد وسيلتهاللائقة به . . فعندنا مثلا يحارب النقد بالســـجن والتشريد . . وعنـــد غيرنا من البـــلاد الاخرى تتعقبه بالاغراء والرشـــوة . . ولعلنا لم ننس بعدنبأ ذلك الباشا المصرى الذى ذهب فى الصـــيف الماضى الى جريدة انجليزيةكبرى، وزار المحـــرر المختص بشـــئون الشرق الاوسط . . والتمس منه ان تســـكت الصحيفة عن نقـــدالاوضاع الفاســـدة فى مصر . . وفى نهاية حديثه قـــدم للمحرر « شيكا » بمائة الف جنيه . . !

ونادى المحرر حاجبه وقال له:

اصحب الباشا الى الخارج . . فانه يجهل الطريق . . !

نعم . . انه يجهل الطريق . . ولقـــد علمه الفســـاد المتفشى فى بلاده ان كل الطرق توصـــل الىروما ، وان الذمم تشترى بالمال فى غير مصر من بلاد الله ، ففعـــل فعلته وهو من الضالين . . !

وليت الحـــكومات هى التىتحارب وحدها حرية النقد . . بل ان الشعب لكذلك ايضا . . !

فحين تنقد منتقاليده الموروثةوجهالاته المزمنـــة ما تعتقد انه ضـــار به ، عائق له . . ترتفـــعاصوات كثيرة حاملة اليك نفحة هائلة من اللعنات والتمنيات . . !

يجب أن نروض أنفسنا علىتقبل النقـــد متأســـين بالرجل العظيم عمر بن الخطاب الذى كانيقول : رحم الله من اهـــدى الى عيوب نفسى .

وان الصـــخرة التى تلقى فىطريق حرية النقد لترتطم بها ــ لهى التقاليد . . .

فتقاليدنا السياسية تصدنا عن نقدها ومحاولة اصلاحها . .

وتقاليدنا الاقتصادية تزجرنا عن نفس الغاية . . وتقاليدنا الدينية تطارد كل محاولة نبيلة لاصلاح ديني . . وتقاليدنا الاجتماعية تريد ان تستعصي على التحوير والتطوير . . !

والحقيقة التي تغرب عن بالناهي ان الاديان جميعها لم تأت الا لتدمدم على التقاليد ، وتقتلعها ثم تذروها مع الريح . .

ولو كان للتقاليد سلطان وحرمة ما قامت للاسلام نفسه قائمة . فانه لم يحارب بشيء كما حورب بالتقاليد . . لذلك ذهب القرآن الكريم يصفع انصارها ـ انصار القدم والبلى والتعفن ، ويسخر من الذين قالوا : « اناوجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » !

فلحساب من . . تستبد بحرياتنا اليوم طائفة عفنة من تقاليد الحكم وتقاليد الاجتماع ؟

لحساب الدين . . ؟ ـ ان الدين كما رأينا يرى في الركون اليها سفها . . بل يراه جريمة يبوء صاحبها بغضب الله وازدرائه . . ففي حديث صحيح يقول الرسول :

« انى ممسك بحجزكم عن النار ـ هلم عن النار ـ هلم عن النار . ولكنكم تقاحمون فيها تقاحم الفراش او الجنادب ، فأوشك ان ارسل بحجزكم ـ وانا فرطكم على الحوض تردون على معا واشتاتا ، فأعرفكم بسيماكم واسمائكم كما يعرف الرجل الغريبة من الابل في ابله ، ويذهب بكم ذات الشمال ، واناشد فيكم رب العالمين ، فأقول اى رب . أمتى . فيقول : يامحمد

انك لا تدرى ماأحدثوا من بعدك . انهم **كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم** » . . !

فهل الركون الى التقاليد الا تقهقر على الاعقاب ، وتخلف معيب مهلك ـ عن موكب التقدم والحياة . . ؟ !

أم هي لحساب الدنيا اذا لم يكن لحساب الدين .. ؟

لكن الدنيا لا تقوم على الجمود بل على التغيير المثابر والتجدد المستمر ـ ولنضرب لذلك مثلا :

فقد كانت البيوت الارستقراطية المترفة مختصة دون سواها بتوريد الحكام والوزراء والرؤساء . فاذا بأمواج السيادة الشعبية ترفع الى القمة اناسا لم تكن التقاليد لتعترف بمجرد وجودهم ، ولم تكن العين لتقع عليهم فى زحام الحياة . .

فابن الخباز « فنسيان اوريول » يرأس جمهورية فرنسا . .

وابن الحداد « ستالين » يتربع فوق الكرملين فى روسيا . .

وغاسل اطباق الصيدلية « ترومان » يصير الرجل الاول فى امريكا . .

وسائق القطار « بيفن » يوجه السياسة الخارجية لبريطانيا العظمى . .

وهكذا فى بقية جوانب الحياة لا قدم للتقاليد ولا قداسة . . ولكل ساعة تقاليدها المستحدثة واوضاعها الملائمة .

غريزة النفور .. حرية المعارضة . . وحرية الارادة

واذا انتقلنا من حرية النقد الى حرية المعارضة وحرية الارادة وجدنا وراء هذين اللونين من الحرية غريزة أخرى قوية ماضية هى ـ غريزة النفور . وانفعالها المشروع النافع المعارضة، والارادة

فانت حين تنفر من شىء مقيت ينتابك احساس مزدوج بالاعراض عنه . . ثم بارادة تغييره او تحديه . .

ولكن الاعراض موقف سلبى ان صلح فى المواقف الفردية لا يصلح فيما يمس الامة والمجتمع وهنالك يستعاض عنه بالمعارضة والتقويم . .

ماذا كان يعنى الرسول بحديثه الكريم . . ؟

« انه سيكون بعدى امراء .من صدقهم بكذبهم ، واعانهم على ظلمهم ، فليس منى ، ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ـ ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى ، وأنا منه،وهو وارد على الحوض»

وماذا كان يعنى عمر حين دعاالناس ان يقوموه اذا اعوج ، ويرشدوه اذا انحرف ..

ثم ما كان يعنى ستالين عندماعزل احد اقطاب حكومته وحزبه وكتب فى اسباب العزل : « انه يتملقنى دائما ، ولا يعارضنى ابدا » .. !

ليس لهذا كله سوى دلالةواحدة هى التقدير الواعى الكريم لغريزة النفور ..

انها اذا طمست فى امة اوضللت ـ صار امر هذه الامة فرطا ـ لذلك رأينا الاسلام يزكى حماسها ويثير انتباهها ، فيقول الرسول :

« لا تمروا بديار الذين ظلموا انفسهم الا وانتم باكون . خشية ان يصيبكم ما اصابهم » .. !

ثم يقول :

« اذا رايتم الظالم ولم تاخذوا على يديه يوشك ان يعمكم الله بعذاب » .. !

ان عبارة « ولم تاخذوا على يديه » هى الانفعال المحتوم لغريزة النفور ـ هى المعارضة والتقويم ..

وحرية المعارضة فى بلادنا عملة زائفة يحظر تداولها ! وبينما نجد كلمة «المعارضة» فى بلاد كانجلترا عنوانا لهيئة سياسية تحترمها الحكومة وتنتفع بذكائها . . اذا بها فى مصر عنوان على طائفة منبوذة مضطهدة ـ هكذا دائما ـ فى كل حكم ، وعهد .. !

ولقد قصصنا عليك من قبل، كيف طردت المعارضة البرلمانية بمجلس الشيوخ كما يطرد بواب عمارة ، او خادم ـ لانهم اجترأوا على رفع الستار عن بعض الذمم الجارحة التى شربت فى كئوس النصر والاستهتار دماء الابرياء ، ودموع اليتامى وثكل الايامى ..!

ان المعارضة البرلمانية قوام الحياة النيابية ، واى امتهان لها أو تقويض لسلطانها ، امتهان للنظام النيابى جميعه وتقويض له

والامر كما يقول « ج. بيورى » فى كتابه ـ حرية الفكر :

« ان الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء ، اعظم من اى شر وقتى مهما بلغ من الاستطارة والايذاء .. »

ان حرية المعارضة وحرية الارادة تأخذان فى الدول المتحضرة مظهرا يبعث على الدهشة والعجب ..

فترى الحكومة البلجيكية التى بذلت جهدا مضنيا لتعيد الملك « ليوبولد » الى عرشه ـ تقف امام معارضة المعارضين من الشعب منحنية مستسلمة . حتى لقد تركت الجماهير المتدافعة كالموج تصرخ فى وجه الملك العائد من منفاه « مقام غير سعيد ياليوبولد .. ارجع الى منفاك ياليوبولد » .. !

بل أن أروع من ذلك قد كان . فكتبت جريدة الاهرام يومذاك أن مدينة « ليبج » أعلنت الحداد من أجل عودة الملك ـ ونكست العلم الوطنى فوق مبنى المحافظة!

وخرج المعارضون فى مظاهرة كبرى يقودها « بول هنرى سباك » معلنة رأيها الصريح فى عودة الملك ـ وبعد يومين اثنين كان الملك يوقع ورقة التنازل عن العرش . وكان « بول هنرى سباك » يتحدث مع مراسل « آخر لحظه » عن المأساة فيقول : « عند ما يصبح الملك هدفا لسخط الشعب ، يصير على الفور غير صالح لان يكون ملكا . ولقد شعر الملك ليوبولد بأنه لا يستطيع الجلوس على العرش الا وهو فى حماية المدافع الرشاشة ..

« وهل تستطيع أن تتصور ملكا يجلس على عرشه فى حماية الحراب .. ؟ » ـ ثم يتحدث عن الملك الجديد قائلا : ـ « ان الامير بودوان فى مركز لا يحسد عليه ، وهو يفتقر الى المران والخبرة . ونحن نطلب منه ثلاثة أشياء فقط ..

ـ أن يحترم مبادىء الدستور .

وأن يعيد السلام والكرامة الى شعبنا الجريح ..

وأن يكون ملكا سعيدا ، فأن الملوك السعداء يخلقون شعوبا سعيدة .. » !

اننا نريد أن نظفر فى بلادنا بمثل هذه الجراءة فى معارضة السلطة التنفيذية والحاكمين المسئولين . ونريد أن تتوفر لنا حرية الارادة فى أن نصنع حياتنا كما نشاء نحن لا كما يشاء الآخرون . والذين لا يمكنوننا من حرية المعارضة يريدون أن تكون مصر بحق « بلاد معلهش » ..

لان العجز حين يرين على ارادة المستضعفين ، وترعش السنتهم بكلمة الحق يعارضون بها البغى والفساد لا يملكون سوى هذه الكلمة الرثة « معلهش » !

والحاكم الصالح النظيف الشجاع هو الذى تزدهر المعارضة برلمانية وشعبية فى عهده وتترعرع . لانه لا يخافها ولا يخشاها .

ولقد كان عمر من هذا الطراز حين قيل له ، اتق الله فى الناس ياعمر ـ فقال :

ويل لكم ان لم تقولوها ـ وويل لنا اذا لم نسمعها ..!

وكذلك كان « لنكولن » حين قال :

« اذا أدرتم أبصاركم فى الوطن ، فرأيتم لى فيه عملا جليلا . فاذكروا الذين كانوا يخالفوننى فى الرأى ويعارضوننى .. لقد كانوا من ورائى سياطا تلهبنى ، ومن أمامى أضواء تنير لى الطريق » .. !

المشاركة الوجدانية حرية الفكر ، وحرية الرأى ..

ان نشاط «المشاركة الوجدانية» يترجم فى حياة المجتمع بتضامن الشعب والحكومة فى حمل التبعات ـ وتلاقيهما فى الاحساس والشعور ..

والعواطف ـ كما يقولون ـ معدية ، ولا تقف عدواها أمام حجر أو حصار .. فاذا شاعت فى الامة عواطف الثقة والمحبة استقام أمرها .. واذا حطمتها عواطف الشك والمقت ـ طاش سهمها ، وخاب فألها ..

ولقد أدركت قوى الشر العاملة الناصبة ، هذه الحقيقة . فتوسلت الى تمزيقنا بترييب المواطنين بعضهم فى بعض .. وتشويه سمعة الرواد المخلصين حتى لا تستجيب لهم الجماهير وتستغل جهل الناس بحقائق الدين ، وحقائق الدنيا .. لماذا صارت الامة أشتاتا ومزقا ؟ تحسبها جميعا .. بل لا تحسبها .. وقلوبها شتى .. ؟

لان نزعة المشاركة قد كظمت فيها وأحالها طول الارغام الى نزعة تشتيت وتخذيل .. !

ولماذا كان ذلك كذلك ؟

لان المجتمع لم يحاول أن يؤمن بحرية الفكر ، ويقدرها قدرها ـ ولو قد فعل لغشيته الثقة ، وآخى بينه التسامح ، وسما به الفكر الطليق الى سماوات من فوقها سماوات ..

لابد اذن ـ أن يقر فى أذهاننا وضمائرنا الاحترام الاكيد لحرية التفكير والتعبير . ويومئذ سيقبل بعضنا على بعض ، ونتخذ من الخلاف الفكرى مزية .. ويضحى بعضنا لبعض ظهيرا ..

فلتفكر أنت كما تشاء ـ ولتدع غيرك يفكر كما يشاء ، دون أن نجعل من مناطق التفكير حلالا وحراما ـ فالفكر وحده هو الذى سيقرر فى حرية كاملة حلها أو حرمتها .. ان للفكر الانسانى

امكانيات ثرة هائلة ، وهو اداة الارادة الكبرى للكشف عما في كون المادة ، وكون المعرفة من اركان وكنوز ..

والعالم الحديث زاخر بالمذاهب والافكار ، ونحن في هذا العالم جزء منه يصيبنا ما أصابه طوعا أو كرها ـ فاذا لم نحط بعقليته وأفكاره خبرا ، ونسارع الى مسايرته أو مسابقته ـ اذا كانت مسايرته بدعة وضلالا . فسنظل مكاننا ـ لنا أعين لا تبصر بها ، ولنا آذان لا تسمع بها ، ولنا قلوب لا نفقه بها .. حتى يمر بنا الموكب وهو ماض الى غايته فسنظل مكاننا ـ لنا أعين لا تبصر اللقيط ، ويضعنا تحت الوصاية حتى يروضنا على تقبل الحياة والتفاعل معها ..

اليس هذا ـ هو منطق الاستعمار حين يعثر على امة مغفلة لا تحترم ما أودعه الله فيها من عقل وقدرات .. ؟ !

ان بلادنا محرومة من أن تفكر ، لانها محرومة من أن تقرأ ـ ومحرومة من أن تعبر وتقول .. وهي ممنوعة من ذلك كله حرصا على سلامة الدولة ، وسلامة الهيئة الاجتماعية .. ! !

أصحيح هذا ـ أم خداع وهراء .. ؟

ان الفكر الحر لا يكون خطرا على الدولة والمجتمع ابدا . وانما مصدر الخطورة فكر غير حر .. فكر مكره ، مضطهد ، موتور ..

ان حكوماتنا تتهيب طبيعة بعض الافكار وتأثيرها ، فتحرمها . وسنفترض اخلاصها في هذا التحريم ، ونظافة بواعثها . ثم ندعوها لتسمع من « ميل » في كتابه الحرية نقاشا هادئا بليغا .

« .. هذه الفكرة المراد تحريمها صواب أم خطأ .. ؟

« ان تلك صوابا لم حظرناها ، فقد حرمنا المجتمع حقه فيها .. وسلبنا منه احدى حقائقه الكبرى

« وان كانت خطأ ، فمن أين لنا معرفة ذلك .. ؟

« يجب لكي نحكم عليها بالتصويب أو التخطئة أن نمتحنها

فى جميع الظروف ، وتتاح لنا الحرية الكاملة فى مناقشتها ، ومناقضتها .. وبغير ذلك لا يستطيع كائن ذو مواهب انسانية أن يتثبت تثبتا عقليا من صواب فكرة أو خطئها ..»

ان هذا القول البليغ ليجهز على أراجيف الذين يحرمون المذاهب والافكار حرصا على دولة ، أو مجتمع ، أو فضيلة .. فالفكرة التى تنتصر على النقاش والمعارضة والنقد انتصارا مستمدا من صدقها وأحقيتها هى التى يجب أن تنظم تقاليد الدولة حولها ، ويصاغ المجتمع والفضيلة وفقها .. لا أن تحظر وتصادر

لكن ، كيف لا تكون حرية الفكر والرأى خطرا على الدولة وهى المسئولة عن كل ما وقع فى التاريخ من تغير وتطور وانقلاب .؟

وجوابنا ـ أن هذه ـ مزية الحرية لا خطيئتها ـ فكل ما أحدثته من تغير وتطور تم لصالح الانسانية وأفضى لاسعادها ..

وأما ما حدث من انقلابات صاغت التاريخ وعينت له وجهته ، فلم تتم جميعها على وجه غير مشروع .. والذى وقع منها على وجه محظور ـ كان القانون فى انتظاره يصادمه ، ويقف دون غايته ـ وهى مصادمة محترمة حتى من الحرية نفسها مادامت بعيدة عن الافراط والتفريط يقول «ج. بيورى» (١)

«ان الحالات التى يكون تدخل الحكومة فيها ضد الحرية سليما ، هى حالات يلتبس فيها الحق بالباطل ..» فلو حدث مثلا تحريض مباشر على أعمال عنف معينة لكان هناك مجال مشروع لتدخل الحكومة .. ولكن الباعث على التحريض ينبغى أن يكون متعمدا ومباشرا ..

«فاذا ألفت كتابا ، وهاجمت فيه الأنظمة الحالية ، ودعوت الى نظرية فوضوية ، ثم قرأه رجل فقام وأعلن التمرد ، وارتكب جريمة .. فقد يستنتج من هذا أن كتابى هو الذى جعل

---

(١) حرية الفكر ـ ترجمة الاستاذ محمد عبد العزيز اسحق

الرجل فوضويا وجانيا ـ ومع ذلك فلايكون جائزا، ولامشروعا أن أعاقب على التأليف ، أو يصادر كتابى مادام لا يحوى تحريضامباشرا علىارتكاب تلك الجريمة بالذات ..

«أن الشر الناجم عن تقهقر الحرية الى وراء أعظم من أى شروقتى مهمايبلغ من الاستطارة

«وان مبدأ حرية الفكر اذا تقرر يوما ما ، باعتباره أقصى مراتب التقدم الاجتماعى .. خرج من مجال الامر العادى الى مجال الامر السامى الجليل الذى نسميه «عدلا» أو بعبارة أخرى ، يصبح حقا يستطيع كل انسان أن يستند اليه ـ وان قيام هذا الحق على مبدأ المنفعة لايبرر أن تقوم حكومة فى احوال استثنائية ، فتقص من أطرافه بحجة المنفعة نفسها.»

ويعنى «بيورى» بقيام الحرية على مبدأ المنفعة، انها لكى تكون مجدية حاسمة بعيدة عن المهاترة والتعارك والخلاف ينبغى ان تناط بالمنفعة القائمة على مصالح الانسان المطردة المتطورة ..

واذا عجزت هذه الكلمات الهادية أن تهدينا، وتقف عدواننا المستمر على حرية الفكر ، فلن نعجز الواقع أبدا.. وهذا الواقع يتمثل فى أن للافكار والآراء فى هذا العصر. من النفاذ ، والغلبة ، وسرعة الانتشار ، وقوة الاقتحام، مالا يمكن قوة على ظهر الارض من وقفها . فبدلا من أن تنفذ الى أفئدة الناس فى خلسة وظلام .. دعوها تأخذ طريقها السوى لنبصرها ونراها ، ونتفحصها فى أناة ووعى لنأخذ منها الطيب ، وننفى عن مجتمعنا الخبيث .

وارتباط حرية الرأى بحرية الفكر خالد وثيق . ولا قيمة للثانية بدون الاولى

ونحن لا نطالب بحرية الفكر كمانطالب بحرية الرأى .. فأنت تستطيع أن تفكر تفكيرا ذهنيا فى أخطر الاشياء ، وأشدها خصومة ولددا للقانون ، دون أن يسمع أحد أو يرد ، ودون أن يقدر أحد ـ حتى أنت ـ على وقف التفكير ورجعه .

لذلك ، فان حرية الفكر تعنى فى الحقيقة حرية الرأى ـ حرية التعبير والقول .

وقمين بنا أن نعلم أن هناك تلازما خلقيا طبيعيا بين التفكير والتعبير .. حتى ان بعض علماء النفس ليقولون :

« الانسان يكلم نفسه وهو يفكر .. ولو راقبنا حباله الصوتية ، ونظرنا الى حنجرته أثناء التفكير ، لرأيناها تتحرك ـ وهو دليل على أنه يتكلم ولو لم يشعر بذلك .. »

أرأيتم الآن ما بين الحريتين من تلازم وارتباط ... ؟

ثم أرأيتم ان مكافحة الحرية مكافحة للطبيعة الغالبة ، وتحد لارادة الله .. ؟!

ولا يتمثل الرأى فى شىء كما يتمثل فى الصحافة ، فهى التى يتشكل فيها الى حد كبير أسلوب الامة فى التفكير وفى الحياة ... وهى التى تستطيع أن تعبر فى افاضة ، واحاطة ، وقوة عن آلام الشعب وآماله ..

ولما كنا سنتحدث عنها فى الفصل القادم باعتبارها أهم العناصر التى تتألف منها شخصية الامة فسنرجىء الحديث عن حريتها ليأتى هناك مع الحديث عن تبعاتها وقيمتها

اطلقوا سراح العقل ..

والحديث عن حرية الفكر والرأى لا يبلغ مداه حتى يحمل نصيبه من الدفاع عن العقل ذاته

ان العقل فى بلادنا ، وهو مناط التفكير والفهم ، مشرد محروم .. تطارده الحكومات ، وتطارده أيضا الجماعات .. !

فهو مشبوه سياسى تارة ، ومشبوه دينى تارة أخرى .. ولا يكاد يبزغ من كوى سجنه بزغة خاطفة ، أو يومض ومضة بارقة حتى يفزع منه « المحافظون » .. !

وماذا ، بعد أن تظل عقولنا مسامة هذا الاضطهاد .. ؟

ماذا ، بعد ان نظل أمة بلا عقل ... ؟

ان المستعمر الذي يستعمرنا ، والمستبد الذي يحكمنا ، والمستغل الذي يستغلنا ـ كل هؤلاء انما يستعينون علينا بعقولهم .

فاذا شئنا أن نزلزل الارض تحت أقدام المستعمرين ، ونرد الرجعية الاقتصادية على أعقابها لتلتزم مكانها الذي أراده لها التطور والتاريخ ...

واذا قررنا الانطلاق مع الموكب الحي ، أحرارا كما ولدتنا أمهاتنا ـ عاملين ، تتفجر بالادب والفن والانتاج مواهبنا ..

اذا كنا نريد ، فلا سبيل لشيء حتى يعود الغائب ، ويطلق سراح السجين .. العقل !

***

ان الخوف والتقليد هما اللذان يلفان عقولنا في الظلمات .

والعجيب انها تخوف بالله .. ترى أين يلتمس العقل سكينته وأمنه اذا افتقدهما لدى الله ؟

ان الشعوب التي لا تحترم العقل لن يحترمها أحد وستظل أبدا مباءة تعج بالسفه والحماقات ونهبا يتربص بها كل مستعمر وناهب .. !

ويجب أن نعلم ان العقل سيد نفسه ، واذا كان لله خلفاء في الارض ، فخلفاؤه العقل ..

والانسان الذي يبخس عقله ، وينتزع منه اختصاصه ، لا يظل انسانا .. انه كومة هزيلة من اللحم والعظم والاعضاء والامعاء يطلق عليها تجوزا لقب « آدمي » !

وهؤلاء الذين يثيرون العواصف امام العقل باسم الله جد مفترين !

لقد اختلف الانبياء والمرسلون ، فكان لكل واحد منهم طريقة ومنهاج ...

واختلف أصحاب محمد عليه السلام وهو ثاو بينهم ومقيم ، واختلف أئمة الفقه في أخص خصائص الدين ... واحترم بعضهم لبعض هذا الخلاف ..

وماذلك كله الا احترام للعقل، وتحريض له على المغامرة والتحليق ..

انظروا ـ تروا عمر بن الخطاب لا يخاف من الغاء نصيب المؤلفة قلوبهم ، مع أنه مضمون بآية صريحة في القرآن .. !

لماذا .. ؟ لان عمر استعمل عقله ، فاهتدى الى ان هؤلاء المؤلفة قلوبهم لم يعد ثمت ما يدعو للحرص عليهم مالم يأتوا مؤمنين راغبين .

ولو أن عمر ، رجل يعيش في عصر الانحطاط الذي نعيش فيه اليوم ، وصنع هذا الصنيع ، لتزاحمت من حوله الفتاوى بأنه كافر زنديق تحركه الجماعات التبشيرية ، وتموله السفارات الاجنبية .. !

ان استعمال العقل واحترامه بداية ما نريد من بعث ونشور ـ ولا بأس أن تخطيء عقولنا وتزيغ .. فسنهتدي آخر الامر والخطأ الذي يثمره تحرير العقل من الخوف خطأ فاضل نبيل .. وهذا هو الخطأ الذي يجعل الاسلام لصاحبه أجرا ..

ولقد كان الرسول عظيما يوم ضم الى صدره معاذ بن جبل تقديرا لشجاعته الادبية والعقلية حين قال : أجتهد رأيي ، لا آلو .. جوابا على سؤال النبي له :

ـ ماذا تصنع اذا لم تجد الحكم في كتاب الله ، ولا في سنتي ... ؟

وكذلك كان « جون ستيوارت ميل » بليغا وهو يقول :

« ان الحق ليستفيد من خطأ الذى يعتمد على فكره مع اتخاذ الاهبة ، وانعام النظر ـ أكثر مما يستفيد من صواب الذين لا يعتقدون الصواب الا من باب التسليم دون أن يكلفوا انفسهم مئونة البحث ، ومشقة التروى»

***

دعوا عقولنا تتحرر من الخوف ، فليس شىء سواها بقادر على تحريرنا وانقاذنا

ولنذكر أن أعداء الشعب لا يرهبون شيئا مثلما يرهبون العقل الطليق المستنير . لانه الرائد الباسل أمام كل حركة شابة ، وتطور زاحف .

انه يأتى « الرعايا » النائمين ، فيصيح فيهم صيحة الايقاظ .

ـ هبوا ، واستقبلوا موكب الحياة والنور .

ويأتى الطغاة المتآمرين ، فيدمدم عليهم بصياحه :

ـ صبحكم .. ومساكم .. !

انى اذا نزلت بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .. !

ومن أجل ذلك يبغضونه ، ويحاربونه ـ وعلينا أن نحرره ليحررنا ـ ونخلصه ليخلصنا .

***

انا لنأسف ملء نفوسنا ، حين نرى بعض رجال الدين ، او القلم ، يسهمون مع الغاصبين فى محاربة العقل وتأليب الجماهير عليه ، وتشكيكهم فى قيمته وفى نفعه ، وتجرئتهم على بهته ورجمه ـ حين يحصبونه بالحجارة والتهم ، ممثلا فى آراء بريئة خالصة لأخوة لهم فى الوطن ، والالم ، والكفاح ...

ان هؤلاء لن يكونوا سوى فريقين :

أصدقاء جهلاء للشعب ..

او أعداء خبثاء له ..

فليختاروا لانفسهم مايحلو .

أما نحن فنختـــار لهم ، أن يكونوا أصدقاء علماء ... !

ونأسف أيضا لحكوماتنا التى تجبى منا الضرائب لتسخو بها عن طـريق المصروفات السرية والعلنية ، على أولئـــك الذين يحاربون العقـــل والوعى بمـا يكتبونه ويذيعونه ..

وحين تدع كتب العشـــاء والتضليل تنشر بلا قيد ، ثم تصادر ، أو تهدد دائما بالمصادرة كل كتـــاب يبشر بالواجب ، ويخافت بالواقع المثير ..

واذا كان الخوف عدوا خطرا للعقل ، فالتقليد أشد خطورة وكيدا .. وهو ديدبان حارس لما للرجعية والتأخر من تراث .

والامم المنحـــدرة النائمة لا تفيق حتى تومض فى حياتهـــا ساعة تؤمن فيها بأن التقليـــد انتحـار ..

ترى هل دقت هذه الساعة فينا ، وآن لها الاوان .. ؟

ان الجواب ــ مع الاسف ــ لا .

فنحن أمة تتلقط دائما من غيرها ــ دون أن يكون لها ابداع وابتـكار

وهذا كلام يضل فيه الفهـم اذا لم يكن بصيرا ، فقـــد يظن البعض أن استهجاننا للتقليـــد يعنى كل محاكاة نافعـــة ، وكل قدوة بالذين سبقونا الى الحياة .. كلا ــ والفـــارق بعيد بين التقليد والمسايرة ...

ونحن ندحض التقليـــد ، ونؤمن بالمسايرة .

ولكن ماعلاقة التقليد بحديث يساق عن الحرية .. ؟

ان العـلاقة بينهما أكيـدة وواضحة .

فالتقليد ــ عبودية ورق ــ واهدار لكافة مقومات الحرية ، والشخصية والفرد حين يقلد فـردا آخر يمحو ذاتيته من الوجود . .

والدولة حين تقلد دولة تقليداً أعمى توقع منشور نعيها وخبر وفاتها ..

وفى بلادنا يكمن التقليد وراء كل عمل نأتيه ، ونهج ننهجه

وفى غيرنا من بلاد الدنيا المتحضرة عليت نزعة التقليد وهذبت ، وصارت تطوراً ومسايرة

يالله المشاهد المضحكة .. !

جماعات تقف فى أقصى اليمين ، وعلى أبصارها غشاوة . وجماعات أخرى فى أقصى اليسار ، وعلى أعينها غطاء ..

ورجال دين يعلنون من فوق منبر الفاتيكان أن ملكوت الله ، ورحموت الكنيسة حرام على من يناصر الشيوعية ، أو حتى يتلو صحيفتها ..

فيقلدهم رجال دين عندنا كبار مذيعين نفس الفتيا معلنين نفس الاعلان

وهنا يتبين لك الفارق الاكيد بين المسايرة والتقليد فالفاتيكان ابتدع هذا النهج مسايرة لامريكا بعد ان اعتمد له « الكونجرس » علنا مئات الملايين من الدولارات جزاءا وفاقا لحملته ومسايرته !

أما نحن ، فنقلد تقليد العبيد الذين لا ثمن لهم ولا جزاء ..

والحكومات عندنا ـ الفت هى الاخرى عقلها ـ ومضت تقلد فى جنون وشغف ـ

فهى تارة تقلد « عنترة » ، فتخطب وتصخب ، وتبطش بالضعفاء لتزجر بهم الاقوياء ، وتمزق الهواء بالسيف ، وتهتف من « الشرفة » بسقوط الشيوعية ..

وتارة أخرى تقلد « جحا » يوم مضى يؤذن وهو يجرى فى الطريق فلما سئل : لماذا يصنع هكذا ؟

اجاب بأنه يريد أن يعرف الى أى مدى يبلغ صوته الجهير .. !

فحكوماتنا تحمل نفسها أوزار العروبة ، وسفهها وفوضاها ـ لانها تريد أن تعلم . الى أى مدى يمكن أن يصل صيتها ، والى أى مدى تستطيع أن تسوس أمبراطورية مترامية عندما يمن الله بها عليها . . !

لقد كان جحا قادرا على معرفة منتهى صوته ومداه لو أنه وقف مكانه ونادى بالآذان . . ولكنه أراد ذلك ليتيح للفارغين أن يقلدوه ، وينتفسوا بذكائه . . !اننا فى كارثة ، ونحن لاندرى . .

فالتقليد لدينا محور حياتنا

وهو يذهب صاعدا ـ فتقلد الجماهير روادها من كتاب وصحفيين وبرلمانيين . .

وهؤلاء جميعا يقلدون الروح المتخلف من سكان الاضرحة والقبور . .

ثم يأخذ التقليد ترتيبا آخر تنازليا ، فنرى الشعب مثلا يصيح . .

هيا الى فلسطين ـ فيردد الكتاب والرواد صداه . .

هيا الى فلسطين ـ واذا الحكومة تصيح هى الاخرى ـ هيا الى فلسطين . . دون أن تتهيأ وتستعد وتقف على صخر مكين . والجماهير ـ تنفس عن غيظها العاجز المكبوت ، فتهتف . . تسقط الرأسمالية . .

وتقلدها الحكومة ، فتصرخ ـ تسقط الشيوعية . . !

ان عقليتنا السياسية تقلد ، وعقليتنا العلمانية تقلد ، وعقليتنا الاصلاحية تقلد . . لذلك نحن أمة تافهة ـ فقدت نفسها لانها فقدت عقلها ـ فاذا أردنا أن نجد أنفسنا ونفرض على الآخرين وجودنا واحترامنا ، فلنقدر العقل قدره . . ولنمكنه من أن يفكر فى حرية وانطلاق ـ لا يخاف وهما ، ولا قانونا ـ ويساير النابهين مسايرة مبصرة . ولا يقلدهم تقليد المكفوفين .

غريزة « أنا » ـ الحرية السياسية ...

عندما نتحدث عن الحرية هذا الحديث المتنوع ، فنقول حرية الفكر ، وحرية الرأي ، وحرية النقد ـ الى آخر هذه التقسيمات ، فليس معنى هذا أن الحرية تتجزأ ..

ان الحرية وحدها متضامة متداخلة لا تقبل التجزئة ، ولا التفتيت ـ ولكننا نكسوها هذه الازياء المتنوعة ـ تبعا لتنوع الظروف والمقتضيات .. والحرية هي الحياة .. والحياة لا تتجزأ ـ فأما حياة كاملة ـ وأما موت كامل ـ

من أجل ذلك صاح محرر قديم ـ اعطني الحرية ـ أو الموت !

ونريد الآن ان نتحدث عن الحرية السياسية للشعب ـ وهي الانفعال السامي لاعرق غرائزه ، وأنفعها ، وأغناها .

غريزة « أنا » حب الذات ، واثباتها ، وتوكيدها ـ ان الشعوب المستعبدة تعجز دائما عن أن تقول : أنا ..

اسمعوا هذه الحقيقة جيدا .

ان الشعب المسترق لا يستطيع أن يقول : أنا ... مشيرا الى نفسه ..

ولكنه يقول : هو .. مشيرا الى سيده !

وعلاج شعبنا اليوم في لسانه .. أن يقول دائما :

أنا .. أنا .. أنا

أن توكيد الشخصية يتطلب مددا زاخرا من قوى الفرد ، وقوى الجماعة .. واذا كانت التعاليم المغلوطة ، والاهانات المتكررة ، والاستعمار المتغطرس .. اذا كانت هذه جميعا قد نزعت عنا كبرياءنا ، فلنحاول من جديد أن نكون أهل ثقة واعتداد وكبرياء .

لقد قرأ نابليون في صغره ـ ان من أراد ان يكون شيئا ما ، فليهتف

كل يوم ثلاث مرات عن وعي وانتباه ـ يجب أن أكون ذلك الشيء ..

وذهب ، فكتب « لافتة » واضحة الكلمات ـ وناطها بجدار غرفته ـ وفى كل صباح يرتدى ثيابه ـ ثم يستقبلها فى وقفة عسكرية ـ ويقرأ كلماتها المكتوبة فى قوة :

ـ يجب أن أكون جنرالا .. !

وانكم لتعلمون أى شيء قد صار ـ نابليون ..

نريد أن نكون مجانين مثل الطفل نابليون ..

فيهتف كل مصرى صباح كل يوم ـ أنا مصر ..

نريد أن تصف كل سيدة صغارها وأشبالها قبل منصرفهم من المنزل فى الصباح ـ وتطلب اليهم أن يصيحوا جميعا ـ نحن مصر ..

نريد أن تقف « طوابير » التلاميذ والطلاب فى أبهاء معاهدهم ومدارسهم لتهتف صباح كل يوم ـ نحن مصر ..

نريد أن يفتتح النواب والشيوخ جلسات البرلمان بهذه الصيحة الواثقة ـ نحن مصر ..

ولكن بعد أن تمثل مصر فى برلمانها تمثيلا صحيحا .. ينتظم فقراءها قبل أغنيائها .

لن نعرف حقنا ـ حتى نعرف أولا ـ أنفسنا ..

ولن يعترف أحد بوجودنا .. حتى نثبت أولا هذا الوجود ..

والسبيل لهذا :

أن نقف ـ لنرى .

وان نتحدث ـ لنسمع

وأن نقتحم ـ لنخشى

وقبل أن نقول : نريد ـ يجب أن نقول : نحن !

واذا ما سئلت : أتدعو الناس الى الانانية ، وحب الذات ، وحب الظهور .. ؟!

أجيب : نعم .. يجب أن نتحلى بفضيلة الانانية .. الانانيـــة المستنيرة الفاضلة ، التى تحفزنا الى ادراك قيمتنا ، والعكوف على مطالبنا ، والنهوض بواجباتنـــا ، والتشبث بحقوقنا ..

لقد قتلنا التواضـــع ، وبددنا طول الانطواء والانزواء .. فلنبرز الى الافق ، ولنبصر أنفسنا من جديد ..

ان الانانية البغيضـــة هى تلك الفردية التى تطويك على نفسك ، وتلفك فى اطماعك وشهواتك .. أما الاخرى التى نريدها ـ فهى تعرفك بنفسك ـ لا تطويك عليها ـ وتنشرك ضخما فخما عظيما ، لتملأ أفقك وفراغك ..

ولكى يبلغ الشعب هذه المكانة ، ويحقق فى مجموعه هذه الفضيلة ـ يجب أن يبدأ أفراده بذلك ..

غادر نفسك ـ اذا كانت نفسك قبوا مشحونا بالاطماع ..

وأنشىء لك نفسا جديدة لهـــا مثل ، ونهج ، وكفاح بحيث تتلاقى مثلك ونهجك وكفاحك مع حاجات وطنك ، ومصلحة مواطنيك .. واعكف على نفسك هذه .. فلن تكون أنانيا بغيضا .. بل انانيـــا مستنيرا .

واذا كان هناك ما يعين على هذه الطريق بعد أنفسنا ، فهو اتاحة الحرية السياسية لنا اتاحة كاملة لا تكتنفها عوائق ولا قيود .. فعن طريقها تتحقق كرامتنا السياسية ، ووجودنا القومى والانسانى .

ان الحيـــاة الســـياسية للامة تنتظم كثيرا من العناصر والادوات ـ ولكنها تتركز اخيرا فى الحكومة ، والبرلمان .

فالبرلمان يشرع للامة سياستها والحكومة تقوم بتنفيذ هذه السياسة ـ وبين الاثنين تفاعل يذهب طردا وعكسا ، فالحكومة تؤثر فى البرلمان وتخضع له . . وهو يؤثر فيها ويخضع لها . .

والطريق المفضى لتحقيق حريتنا السياسية هو : ديموقراطية الحكم والديموقراطية النيابية ـ فلنتحدث عنهما ـ

ديموقراطية الحكم

لكى يكون الشعب حرا ـ يجب أن يسود . .

ولكى يسود ـ يجب ان يحكم

وهذه هى الديموقراطية . . حكم الشعب

وما دامت الحكومة ثمرة انتخابات يختار الشعب عن طريقها ممثلين ، ليعينوا بدورهم نوع الحكومة التى ستحكم . . فان الشعب اذن هو المسئول وحده عن نوع حكومته ، وسنوضح هذه المسألة عند الحديث عن الاصلاح البرلمانى . . بيد أننا نريد أن نقرر هنا أن الحكم الديموقراطى اذا غربت شمسه عن أمة ، فقد غرب معه استقلالها ، ومال مستقبلها للمغيب . . وبعبارة أخرى . .

ان الحكم الاستبدادى يقوض سيادة الدولة ، ويهيىء الامة للعبودية والاستسلام . لذلك يجب أن يسلك كل حاكم طاغية فى عداد « الخائنين العظام » ـ لانه باستبداده ينزل الشعب منزلة رديئة من الاستياء والقنوط يفقد فيها زمام التصبر والاحتمال . . فيرحب بكل طارق يقرع أبواب بلاده ، ويرى المقاومة ضربا من العبث والجنون . .

ماذا وراءه حتى يحرص عليه ، ويذود عنه . . ؟

لقد قال الشاعر العربى :

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا

فاذا تلفت الشعب وراءه، فلم يجد له ذكريات سعيدة تستجيشه وتناديه ـ ففى سبيل ماذا يقاتل؟

وقال شاعر آخر:

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

فاذا ابصرت الجماهير بالاشجار التى أبت أن تظللها من الهجير، وتطعمها من الجوع .. تجتاحها الاعاصير، أو تعدو على ثمارها الذئاب .. فلماذا تدافع عنها ؟ !

لذلك لا نجد غازيا سار عبر التاريخ الى مدائن ففتحها، أو عروش فدكها، أو امبراطوريات فأذاقها لباس الخوف والذل ـ الا كان استبداد الحكم فى هذه البلاد المفتوحة الصريعة، الطريق المهد الذى دخل منه موكب الغازين ..

انصتوا لفوستاف لوبون [1]:

« استقبل كثير من البلاد المحتلة غزاة فرنسا كمحررين لها ـ فقد هرع سكان سافوا الى رؤية الجنود الفرنسيين، واستقبل الناس فى مايانس هؤلاء الجنود بحماس .. وغرسوا أشجار الحرية، وأسسوا مجلس عهد شبيه بمجلس باريس ..

« .. وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية تصطدم بأمم أذلها الملوك المستبدون، ولم يكن لها خيال تذب عنه ـ كان النصر يحالفها .. ولكنه كان يتعذر عليها عند اصطدامها بأناس أولى خيال وثيق كخيالها .. »

اذن فالحكام المستبدون فى امتهم طابورها الخامس الذى يعمل بشعور أو لا شعور، لحساب الغزاة والمستعمرين ... وهم الذين يحيلون الشعب الصلب المتماسك الى زبد طرى تجرى فيه السكين ..

---

(١) كتاب روح الثورات ـ تعريب الاستاذ محمد عادل زعيتر

واذن فالامة يتقرر مصيرها ،يوم ينهض فيها حكم استبدادى ولو تلفع بأردية زائفة من الديموقراطية ، وما أروع ـ اذن ـ محمدا رسول الله حين يقول :

اذا وسد الامر لغير أهله فانتظر الساعة ..

أى اذا صارت أمور الامة بيد من ليس للحكم أهلا ، فانتظر الساعة .. الساعة التى تدق معلنة وفاة هذه الامة .. ناعية سيادتها واستقلالها .. ! وهل يكون المستبد أهلا للحكم أبدا .؟

انه لايكفى شكل الديموقراطية بل لابد من حقيقتها .

وليس يكفى أن يكتب فى الدستور : الامة مصدر السلطات ثم يكون الواقع ـ ان الامة ضحية السلطات .. !

وليس يكفى أن يحمل حكامنا « جنسية مصرية » بل لابد أن يجرى فيهم دم مصر ، وآلام مصر وآمالها ..

***

ان الحاكم الديموقراطى يحترم الشعب ، ويجعله فى عينه أجل من أن يخدعه ، وأعظم من أن يضلله ويحترم حقوقه جميعا أدناها ، كأخطرها .. ولطالما تستبد بنا الدهشة والعجب حين تضطرب أمورنا ، فنفقد توازن الحكم وديموقراطيته ،ونتساءل مانحن ..؟

عرب ـ أم فراعنة ..؟

ثم تتكاثف الدهشة حين نجد أنه لادين العرب الذين هم آباؤنا ولا دين الفراعنة الذين هم جدودنا ـ يبيح الاستبداد ، ويمنح الحاكم المستبد حق الطاعة والاحترام ..!

فهذا هو الرسول يقول :

« مامن امام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة الا اغلق الله أبواب السماء دون خلته ، وحاجته ..

ويقـــول : « اذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذاب من عنده ..

ويقـــول : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا ، فشق عليهم ، فاشقق عليه ..

ويقـــــول : « ان شر الرعاء الحطمة .

ويقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، ويصلون عليكم ، وتصلون عليهـــــم ..وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضـــــونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم .

ويقول : « اذا أراد الله بالامير خيرا ـ جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعـانه ..واذا أراد الله به غـير ذلك جعل له وزير سوء ـ ان نسى لم يذكره وان ذكر لم يعنه .

وهـــذا عمر يعدو وراء بعير شـــارد من ابل بيت المـال ..

حتى اذا سئل :

الا نتعقبـــه نحن ، وتستريح أنت ياأمير المؤمنين ؟

أجاب وهو يهدر :

ولمـــاذا اذن أكون للناس والياوا ميرا .. والله لو ضـــاع عقال بعير بالعراق لخشيت أن يسألني الله عنه ، ويقول لي :

أنستودعك حقوق النـــاس ، وتنام عنها ياعمر ..؟!

أى أن عمر رضى الله عنـــه يقدر مسئوليتـــه ازاء حق الشعب في عقال بعير ـ في حبل من مســـدلا يســـاوى شيئا ـ فكيف كان تقـــديره اذن لحق الشعب في الحرية ..؟

هذا هو الاســـلام ـ اذا كنا مسلمين ..

وماذا في دين المصريين الاقدمين؟

انهـــا نفس التعاليم التي تلزم الحاكم باحترام الشعب ، ونشر الحرية والعـــدل والمساواة بين أبنائه جميعا

لنضع أبصارنا الآن على الصفحة الثالثة والتسعين من الجزء الثانى لكتاب « قصة الحضارة » .. حيث نطالع الخطاب التقليدى الذى كان يلقيه الملك على الوزير حين يتقلد منصبه ! ..

« اجعل عينيك على مكتب الوزير ، وراقب كل مايحدث فيه ، واعلم انه الدعامة التى تستند اليها جميع البلاد .. ليست الوزارة حلوة ، بل هى مرة .. واعلم انها ليست اظهار الاحترام الشخصى للامراء والمستشارين وليست وسيلة لاتخاذ الناس أيا كانوا عبيدا ..

« انظر . اذا جاءك مستضعف من مصر العليا أو السفلى ، فاحرص على أن يجرى القانون مجراه فى كل شىء ، وان يعطى كل انسان حقه .. واعلم أن المحاباة بغيضة الى الاله ، فانظر الى من تعرفه نظرتك الى من لاتعرفه .. والى المقربين الى الملك ـ نظرتك الى البعيدين عن بيته ..

« انظر . ان الامير الذى يفعل هذا ـ سيبقى هنا فى هذا المكان .. وليكن مايخافه الناس منك انك تعدل فى حكمك ..

« ارع القواعد المفروضة عليك . »

هذه آيات يفسدها التعليق ، فلندعها هكذا متألقة ـ ولنتساءل مرة أخرى .

من أين لنا اذن مايصبغ حكوماتنا جميعا بصبغة العتو والاستبداد ..؟

من الاسلام .. ؟ لا ..

من المصرية القديمة ..؟ لا ..

اذن . فمن أين .. ؟ من أين تهب هذه الريح السموم ..؟

لابد أنها من الماضى .. حيث الاستعمار التركى المتوحش .

ومن الحـــــاضر . . حيث الاستعمار الانجليزى الخبيث .!

***

لقد أتى على جماهيرنا المستعبدة حين طويل من الدهر زيف فيه دينهـا تزييفا هادفا ليسلس قيادها ، وتتلاشى أمام الطغـاة ارادتها . فقيل للمسلمين منا : ان نبيكم يقول :

« اسمع لاميرك واطعه ، وان جلد ظهرك واخذ مالك »

« كن عبـد الله المغلوب ، ولاتكن عبد الله الغالب »

« الزموا طاعـة امرائكم ، وان ظلموا . . ، فان الله مبتليكم بهم »

وحاشا محمدا . . ثم حاشاه أن يقـــول من هذا شيئا . .

وقيـــل للمسيحيين منا ان دينكم يقول :

« أيها العبيـد ـ فلتخضعوا لأسيادكم ، والخـــوف يملأ نفوســـكم . ولا يكونن هذا خضـــوع للخيرين منهم ، ولا للرفيقـــــين فحسب ـ بل وللشريرين أيضـا ـ رسـائل بطرس .

« أيهـــا العبيد ـ اطيعوا سادتكم فى خوف ، ورعدة . . ـ الرسالة الموجهة الى الفيزيين

« على جميع من يخضعـون لنير الرق أن يعتبروا أسيادهـم جديرين بكل تبجيل ـ الرسالة الموجهـة الى تيموتيوس . .!

وحاشـا روح الله ـ وحاشا حواريه الصادقين أن يقولوا من ذلك شيئا . .!

انهـا اذن مؤامـرة قتـل الاستبداد حبالها من زمن وسلك فيها ضحاياه من الشعوب .

فلنحـذر . . ولنعش أحراراكما ولدتنـا الامهات ، وتشققت عنا الارحام . .

الديموقراطية النيابية :

واذا كانت ديموقراطية الحكم لازمة لتحقيق الحرية السياسية فى الامة ، فألزم منها وأخطر الديموقراطية النيابية ... فالبرلمان هو الذى يثمر الحكومة ، ويعين اونها .. وعملية الانتخاب هى التعبير الصحيح عن ارادة الشعب وحريته السياسية اذا لم تخالطها رغبة ولا رهبة ..

والديموقراطية النيابية تتحقق بعناصر أهمها : ـ

ا ـ حرية الترشيح ..

ب ـ حرية الاقتراع ..

ولنبدأ الحديث عن أولها ..

حرية الترشيح

ان المواطن الذى يتقدم الى الناخبين طالبا ثقتهم ، يجب أن يكون حرا .. ويجب أن يشعر بالحرية المطلقة شعورا غامرا حتى يواتيه الاحساس الصادق بكرامة مهمته وقدسيتها .

ولكن الترشيح فى بلادنا مصفد بهذه القيود .

ا ـ الدوائر المغلقة ..

٢ ـ العصبية والحزبية

٣ ـ القيود البرجوازية ..

***

أما الدوائر المغلقة فبدعة فى حياتنا السياسية .. وهى نوع مهذب لاسواق الرقيق .. لان فحوى هذا النظام ان تتفق الاحزاب على توزيع مناطق النفوذ .. فيأخذ كل حزب نصيبه من الدوائر ، ثم يفرض عليها من مرشحيه من لاتكون لهم موهبة سوى موهبة التبطل والفراغ ..! ويحرم على

ذئاب الحزب حرف (أ) أن تعتدى على ذئاب الحزب حرف (ج)
بل لماذا نظلم الذئاب .. ؟

ان نظام الدوائر المغلقة يقضى على المنافسة الحرة فى الترشيح ويجعل أحزابنا قريبة الشبه (بالفتوات) الذين يتقاسمون الشوارع والاحياء .. ! ولا بد لكى تنال حريتنا النيابية من الغاء هذه البدعة وتحريمها .

***

وليس بخاف عنا ، أثر العصبيات ، وقوائم الترشيح التى تصدر عن الاحزاب ، فى تسيير المعركة الانتخابية فى طريق بعيدة جدا عن الحرية والديموقراطية .

ولقد أهدرت من وقتى كثيرا لكى أتمكن من مراجعة بعض قوائم الترشيح الحزبى التى صدرت فى بلادنا .. وامامى الآن منها خليط متنافر ، لاحزاب عدة ان أذكر لك أسماء .. وحسبك أن تعلم أن تسعين فى المائة من الذين تحمل القوائم أسماءهم ليسوا أكثر من حزم كبيرة من البنكنوت والجهل والنفاق .. !

لقد آمنت بأن الاحزاب لاتحترم الشعب ابدا مادامت تختار له هذا الاختيار ..!

ان الحزب ـ فيما يبدو ـ لايريد نائبا يشرفه بعقله ومواهبه ولكنه يريد ـ بوليصة تأمين ـ تؤمن خزينته من الاعواز ونفوذه من الخذلان .

وهكذا تبيع الاحزاب ـ الناخبين الى مرشحيها .. ثم يعود المرشحون . . ليبيعوا الناخبين ومصالحهم الى الاحزاب ولسنا ننظر الى خطر قوائم الاحزاب من هذه الزاوية وحدها ـ بل ومن الزاوية الاخرى حيث تستعمل الاحزاب نفوذها ـ غالبا ـ فتعمل على انجاح عملائها الذين فرضتهم على الشعب .. ومن زاوية ثالثة ـ حيث يتسم النظام النيابى بما قد يسلح وصفه بالخسة والدناءة .. اذ لايسجل اسم مرشح فى

قائمة الحزب الا اذا نقد الحزب ثمن هذا الترشيح ـ هذه جريمة بشعة ..

فنحن نعلم ان المرشح لايدفع ألفا من الجنيهات مثلا الا ليضمن بها الفوز والانتصار .. والحزب يعده ذلك ويمنيه ويعمل جاهدا لاجله . ويقبض منه الثمن على هذا الاعتبار ..

بماذا تسمى هـــذه العملية المتبجحة الرخيصة ؟

أهى سمسرة ؟ أهى غش وتدليس .. أهى تجارة رقيق ، يباع فيها الناخبون للمرشحين ؟

نعـــم ـ هى كل ذلك . . والغرم دائما على الشعب الاسيف فالمرشح الذى يرشو حزبه بألف جنيه ، وينفق فى المعركة مثلها . يعود فيتقـاضى مادفعه أضعافا مضاعفـة . . ومن أين ..؟ من الشعب وعلى حساب مصالحه . فهو اذا نجح فى الانتخاب يصـير رجلا ذا نفـوذ .. وهذا النفوذ لايتحرك لقضاء حاجـة الا بثمن .. لايسمـونه طبعا رشوة ، ولاسمسرة . انه فقط (مصاريف) الانتقال . وثمن القهوة ، أو ثمن البنزين .. !

وللذين يوضعـــون فى قوائم الترشـيح أثمان متفـاوتة ، تختلف باختـــلاف الدائرة ، والحزب هـــل الدائرة مقفلة أم مفتوحة ؟ لكل من الاثنتين ثمن ! وهل الحزب ضالع مع الحكومة التى ستجرى الانتخابات أم غير ضالع ؟ لكل من التقديرين ثمن

وفى أحزابنـــا تقرع أجراس المزايدة .. والاوكازيون .. ففى هذا الحزب تساوى الرأس . . خمسمائة ..

واذا كنت رجـلا رقيق الحال فلا تحـــزن .. ستجد أحزابا أخرى رقيقـة الحال مثلك تثمن رأسك بثمن بخس ـ مائة جنيه مثـــلا .. وخمسين أيضا اذا هانت عليك رأسـك كل هذا الهوان ..!

***

فاذا غادرنا القـــوائم الى العصبيات ، ألفينا فسادا كبيرا فهناك ترى مثلا ـ رجلا مفرط الجسامة ، منتفخ الاوداج .. حذار أن تطيـــــل اليه النظر ، وتحملق بعينيك الفضوليتين فى وجهـــــه الكريم .. انه السيد المالك .. الذى يملك القرية كلها . . وربما يملك معها القرى التى حولها .

حسب هذا السيد حين تخلو الدائرة ـ أن يعلن فى كلمـــات متأففة متكلفة . . أنه سيدخل المعركة ، فلا تكون قط معركة .. لن يجرؤ أحدهما تكن ثقافته على مواجهته فضلا عن مزاحمته

ولقـــد حدث مرة أن اجترأ رجل فاضل جدا ، ومثقف جدا ـ على ترشيح نفسه فى احدى دوائر الصعيد أمام سيد كبير .. فضرب السيـــد الارض بقدمه فانشقت ـ وخـــرج منها أحد خدمه وعبـــدانه .. فانسحب السيد من الترشيح ، واقسم بعزة آبائه أنه لن يرشـــح سوى هذا ، ولن ينجح سواه . . هذا الخـــادم الاقرع الاعرج الذى يتبـــول على نفسه ، ويظن أن السماء تمطر رذاذا ..!!

وقد كان .. واحرج الرجل المثقف الفاضـــل ـ كان يمر بالدائرة فى بضعـــة أنفار من عصبيته المتواضعة ..

وكان خادم السيد يسـير فى موكب يزرى بالمواكب ، وكرنفال تهتف الدنيا له ..!!

لابأس ان يرشـــح الخدم وينتخبـــوا ـ فهذه دعوتنا ورسالتنـا ـ أن يحرر العبيد ، وترتفع قيمة الانسان ..! ولكن الموقف هنا مختلف اختـــلافا بعيـــدا .... وهـــو من الوضوح بحيث يعتبر تفسيره اتهاما لفطنة القارىء وذكائه ..

ان العصبيـــات وقـوائم الترشـــيح تطأ حرية الاقتراع بأظلافها وتبـــددها تبديدا . . . والدوائر المغلقة كذلك ـ ورابعة الاثافى ، ان كان للاثافى رابعة .. هى :

انها تسجن امكانيات الشعب في قانون ...

قانون لايسمح لك بالترشيح الا اذا دفعت مائة وخمسين جنيها .. والا اذا كانت ضريبة الدخل التي تدفعها عن أملاكك وأطيانك مائة وخمسين جنيهـا كذلك اذا كنت ستدخل مجلس الشيوخ !

ان مقاييس الجدارة في بلادنا لا تزال أبعد ماتكون عن المواهب الجديرة بالاحترام ..

انها تناط بمالك .. ووسامتك .. ونوع الدوحة الـكريمة التي تنتسب اليها .. !

وقد يحسب المثرون أن مائة وخمسين جنيها للتأمين شيء غير معجز .. وهـم معـذورون لان أكوام الذهب والورق التي أمامهم تخـفي عنهـم ملايين المواطنين الشرفاء .. الذين يعيشون من اليـد للفم ، والذين قد يتقاضى أحدهم ثلاثين ، أو أربعين جنيها ولكنه يوم يموت لايجد أهله ثمن الكفـن الذي يلف حطـامه ، وعظامه ..!

ثم ان هذه القيود ، حتى مع القدرة قبيحة ، برجوازية ، مثبطة

قد يقـال : ان هذا التأمين الذي يؤهلك للترشيح .. أو ذلك الشرط المادي الذي يشترط ملكية خاصة تؤهلك للشيوخ .. انما توخى بها القـانون تنظيم الترشـيح ، وحصره في نطاق معتدل معقول .. حتى لايتقدم كل من هب ودب ..

وسنفترض ان هذا هـو الباعث ؛ وانه باعث سليم . وعندئذ نسأل :

لماذا تناط المسـألة اذن بالمال . . ؟

هنا تبرز الاغراض الرأسمالية الواقفة وراء كل تشريع ؛ والتفكير الاقطاعي الذي يمسـك زمـام المجتمع وزمام الحياة . .

فليكن المناط فى هذا المجال ـ العلم ... المؤهل العلمى ... وحتى هذا نحن لا نرضاه . ونرفض أن تقيد ارادة الترشيح بأى قيد سوى قيد المواطنية . والصلاحية . .

ومن القيود البرجوازية أيضا السن . .

فأنت ؛ مهما تكن مواهبك ونضجك ، لا تكون نائبا حتى تبلغ الثلاثين . . وقد تسقط فى أول محاولة لك ؛

وفى الثانية أيضا . . فلا تتمكن أن تخدم بلادك داخل البرلمان الا ابتداء من الاربعين مثلا . . !

ألسنا نمنح الشاب ابن العشرين ، أو ابن الثالثة ، أو الخامسة والعشرين شهادات عليا ، تتيح له أن يكون محاميا ، أو طبيبا ، أو أستاذا ، أو قاضيا .. ؟!

فهل هذه الوظائف فى قيمتها والتزاماتها لا تهم الدولة ، فتعهد بها الى الصبيان .. ؟!

أى فارق بين وكيل للنيابة فى سن الخامسة والعشرين يجلس الى يمين القضاة .

وبين وكيل للامة ، فى مثل هذه السن ، يجلس تحت قبة البرلمان .. ؟

فلتنفض هذه القيود . .

فلا يشترط التأمين ـ ولا دفع قدر من الضرائب محدود . ولا سن الثلاثين ـ ولا الاربعين .

ان سن الرشد الذى اعتبرته الدولة ؛ وحددته باحدى وعشرين هى السن اللائقة للبرلمان بمجلسيه ـ النواب والشيوخ . نبدأ منها ، ونظل مادام فينا جلد وقدرة وحياة . .

***

وبعد؛ فان مجالسنا النيابية حتى اليوم لم تمثل الامة ، بقدر

مامثلت الحزب .. وكان هذا سببا مباشرا لكل مانعانيه من ويلات

والبرلمان الذى يأتى ثمرة هذه الاوضاع الفاسدة ـ لايحكم الحكومة بل تحكمه ..

ولايعزف عن تأييدها ابدا عدا محاولات ناشئة بدأنا نحسها فى البرلمان القائم .. قد تتضاعف وتنمو ـ وقد توجه اليها صيحة زاجرة ، فترتد على أدبارها ، وتنكص على أعقابها ..

فى شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ ـ وافق مجلس العموم البريطانى بأكثرية (٢٣٥) صوتا ـ ضد (٢٢٩) صوتا .. على تعديل تقدم به حزب المحافظين بشأن بعض المسائل البرلمانية . . أى ان حزب المعارضة انتصر على الحكومة فى برلمان لها فيه أغلبية الاعضاء والآراء . .

فما دلالة هذه الظاهرة التى تتكرر كلما تكررت مقتضياتها ؟ انها تدل على ان النائب هناك ، يعرف نفسه جيدا .
ويدرك انه يمثل الامة فى البرلمان ويمثل الحزب فى الامة .

أما عندنا ، فالنائب يمثل الامة فى الحزب ، ويمثل الحزب فى البرلمان !

فارق كبير جدا ـ فمتى نبلغ مبلغ الرجال . ؟

ب ـ حرية الاقتراع .

الاقتراع ـ هو الادلاء برأى حر فى اختيار ممثل لمجموعة من الناس ـ يثمر تلك المنظمة النيابية التى نسميها « البرلمان »

والبرلمان ـ هو الهيئة المختارة الممثلة للامة ، والتى تثمر الحكومة الديموقراطية ، وتراقب سلوكها

والحكومة ـ هى الهيئة التى تقوم بحماية الدولة ، وتنفيذ قوانينها ، ورعاية مواطنيها ..

واذن ، فنحن حين نختار نوابنا ، أو شيوخنا ـ نختار فى

نفس اللحظـــة الحكومة التى ستحكمنا ، بل والقـوانين التى ســـتسيطر عـــلى مجتمعنا ٠ والسياسة الداخليـة والخارجية لبلادنا ...

فاذا كان الشعب اليوم بمعزل عن المؤثرات الحقيقية فى سياسة وطنه ـ لايســـهم فى تقـرير مصيره ٠ ٠

واذا تكون كريهة يدعى لها ـ واذا يحاس الحيس يدعى جندب فمعنى هذا انه ـ كان الله معه ـ لاينتخب ، ولايختار ٠٠ وانما يساق سوقا عنيفا ، أحيانا ـ ورفيقا، أحيانا أخرى الى التصديق عـلى الذين تضعهم الظـــروف السعيدة أمامه من مرشـــحى الاحزاب ، ومرشحى السلطات، ومرشحى العصبيات ٠ !

هذه هى الحقيقة ٠ ٠

ان الحرية السياسية فى بلادنا كالاشتراكية تماما ... كلتاهما اكذوبة على شفاه الكبار ٠٠ وهم فى أحلام الصغار ٠٠ !

أصحيح أن الناخبـين حـين يســـاقون الى الصـــناديق بالوسائل المعروفة يتمكنون من صوغ رأيهم واملاء ارادتهم ٠٠ ؟

أصحيح ان هـذا المواطن المحطم المتهالك الذى يحمـل همـوم الثقلين ٠ ٠ ويزلزل سكينته صراخ عشرة بطـون جائعة هى بطون زوجه وأولاده ٠

هذا المسـكين الذى برقت أمام حاجته وحـــرمانه ورقة بنكنوت ، تتيح له امتـــلاك خمسـين قرشا تجعل جحيمه فردوسا أعلى ٠٠ وتجعله فى لمح البصر من الاغنياء والموسرين ٠٠ ! على أن يعطى صوته لرجل لايعرف عنـــه شيئا ؛ الا انه أحياه ٠٠ يوم كانت حيـــاته منوطة بهذه الخمسين ٠٠

أتظنونه سيأبى ٠٠ ويذهب ليختار مرشحا آخر لايرشـو ولا يعطى ٠٠؟

كـلا ـ ولو كان مرشـح الشماء ٠ ٠ !

ومواطن آخر ٠٠ ذلك الذى يقع فى منطقة نفوذ مالك كبير ، فيؤمر أمرا باختيار مالكه٠ أومن يهبه المالك رضاه ،فيمضى صبيحة الانتخاب أسيفا مكتئبا يحسد الآخرين الذين هـم فى منح أصواتهم أحرار ٠٠ يبيعونها بالثمن الذى يشاءون ٠ ٠

أتسمون هذا انتخابا ٠٠ ؟

أعرف فى مصر « تفتيشا »غليظا أنا أحد رعاياه ٠٠وقريتى كلها تقع بين فكيه ، وفى دائرة نفوذه ـ ومعها بلاد وبلاد ٠٠

فاذا جاءت انتخابات ؛ لم تجد المرشحين هناك يتزاحمون عـلى أبواب الناخبـين ، ولا يسعون اليهم٠٠ بل يتسابقون الى سراى التفتيش ٠٠

وهناك يجلس « البـــك »« المفتش » ينقر مكتبه الانيـق بأنملة سـبابته ، فيهب سكان أربعة بلاد وقوفا ، وصفوفا ٠٠ ثم يومىء اليهم بطرفه ،فيخروا ساجدين ٠٠ !

فعندما تزور « البك» المفتش وتصلان معا الى اتفاق معلوم ٠ ويعدك بأن الصفقة لك ، فقد ضمنت قطعا أصوات هذه البلاد جميعا ٠٠ وفى يوم الانتخـاب « المشئوم » يساق القطيع المسام يثغو ثغاء هزيلا ٠٠

من تنتخبوا٠٠ ! التفتيش٠!

من نائبكم ٠ ؟ التفتيش ٠ !

انظر ٠٠ انهم لن يختاروك فحسب ، بل وسـيجعلونك تفتيشا ٠٠ !

حدث هذا ، ولايزال يحدث٠ وفى يـوم من تلك الايام التقى أستاذ فاضل باحدى المـدارس الثانوية بمعاون التفتيش ،وهو واقف بين الناخبـين ، يذكرهم ويحذرهم فأخذته عزة العلم ، وكرامة الانسان ، وثار فى عنف ٠٠٠

وثار معاون التفتيش فى عنف أكثر ..

كان المدرس الفاضل يتحدث بقوة كرامته وحدها ..

وكان الثانى يتحدث بقوة تفتيش باذخ عظيم ..

كان الاول يترافع عن حقوق الانسان ..

وكان الثانى يترافع عن حقوق الاطيان .. !

ماالكرامة .. أمام تفتيش، فى بلد كمصر .. ؟!

وماحقوق الانسان ، أمـــام الاطيان ، وآلهة الاطيـــان ، فى بلد كمصر ..؟!

انتخاب هذا .. أم انتهاب ؟

اختيار هذا .. أم اقهار ؟

كل شىء فى بلادنا مظلوم . حتى اللغة ـ حتى الكلمات ..!

ان الانتخابات ـ هنـــا ـ ملحمة عظمى ، تصرع فيها ارادة الشعب وحريته ..

وهذه الجماهير المتراكضـــة تســـخر فقط لحمل الاعضـــاء على الاكتاف حتى تبلغ بهم باب البرلمان .. وهناك يسمح لهـــا بالعودة .. فتعود الى نجوعها، وجوعها تقرع سن الخيبـــة ، وتزدرد آمالها اللاغبة وأمانيهـــا المتعبة .. !

ان حرية الاقتراع تعيش فى هذه الاصفاد .

أ ـ الاقطاعيات والتفاتيش . وقد ضربنا من واقعها مثلا .. نعتقد انه يتكرر فى كل ضيعة وتفتيش .

ب ـ الرغبـــة العـــامة فى التزييف ..

وهى تبدأ من رجل البوليس ـ وتنتهى عند رئيس الحكومة .

أما رجل البوليس الذى يقترف هذا الوزر ، فيكون حافزه غالبا المجاملة ، أو المعاملة ..

ولسنا هنـــا نعيب هيئـــة البوليس، أو نتهمها ٠٠ فليسوا سواء ٠٠ اننا نشخص مرضـامن أخطـــر أمراض مجتمعنا ، ولبعض رجال البـــوليس دور ملحوظ في نشوئه، ومضاعفاته والبعض الآخر عف كريم

هذا الرجـل البوليسى الذى يخون واجبه، ويسيىء استعمال ســـلطته ـ يستغل ضعف الجماهير وخوفهـــا ، فيمسك أزمتها بواسطة شـيوخ الخفراء في القرى ، وشيو خ الحارات في المدن ، ثم يوجههـا حيث يريد .. انه يهدر أمانة الواجب من أجل مجاملة أو معاملة ..

أما الحـكومة التى تجـــرى الانتخاب ـ فاما أن تكون حزبية ،أو لاتكون ٠٠ فان كانت ، فان الحزبية تدفعها الى توكيد ذاتها ، ونشر لوائهـا ، فتزيف ـ وان كانت محـايدة تنتابها الفلسفة المكيافيلية ٠٠ فالغاية تبرر الوسيلة ـ والغاية عندها، ايجاد برلمان صالح ٠ ٠ حسب فهمها الخاص لكلمة صالح ٠ ! والوسيلة هى اكراه الناخبين على اختيـــار الصالحين ٠ ٠٠ الصالحين فى نظرها أيضا وهى تقنع نفسها بأن الشعب جاهل، ولايحسن الاختيار ٠ وهـــذا حق ٠

ولكن ، ماالسبيل لان يتعلم ،ويحسن الاختيار ؟

الطـريق هـــو الحرية ،والتجربة ٠ ٠

دعوه يتخير ، ويخطىء ـ ثم يتخير ، ويخطىء حتى يبزغ اليوم الذى تنمو فيه تجاربه ، وينضج وعيه ، فيختار فى توفيق وسداد

ماذا يصنع أحدنا حتى يصبح واعيا رشيدا .. ؟

انه يمـر بأدوار الطفـــولة والمراهقـــة والشبـاب متعثرا بالخطايا والاخطاء ـ حتى اذا بلغ أشده ، ورشده ، واستوى ـ أتخذ من عثرات ماضـــيه ، وتجارب أمسه درســا هاديا ، وعصمة واقية .

فليعلم رجل البوليس ـ أن الواجب ـ أسمى من المجاملة ،

وابقى من المعاملة .. وليتق الله فى أمته التى قطعت فى ممارسة الحياة النيابية سبعة وعشرين عاما ... ثم كأنها تبدأ اليوم .. بل كأنها لم تبدأ بعد .. !

وليعلم الحاكمون أن الخطأ وسيلة الصواب .. ولابد أن نخطىء اليوم ، لنصيب غدا . وان الحاكم الذى يزيف ارادة الامة انما يقف نموها ، ويلاشى شخصيتها .

ج ـ رشو الناخبين ...

وهذه الرشا التى تقدم للناخبين جهارا علنا تضرب حرية الاقتراع فى الصميم ..

وقد تسأل : اليس الناخب الذى يبيع ثقته بدراهم معدودة يصنع ذلك مختارا ، ويصوت فى حرية .. ؟

والجواب طبعا ـ لا ـ لان الاكراه ليس فقط للقوة ، بل هو ايضا للضرورة ... وهذا الذى استكرهته ضروراته على بيع صوته ـ مكره لا مختار ... ففضوا عن عنقه أغلال ضروراته ، وحاجاته .. والى أن تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فيجب أن تحرم الرشا فى الانتخابات تحريما زاجرا ... وتشرع عقوبة مؤدبة لا للآخذ ـ بل للمعطى ـ فالمرشح الذى يثبت عليه أنه رشا ناخبيه يحرم من حق الترشيح ثلاث دورات متتاليات من تاريخ الجريمة لعله يتذكر أو يخشى ، فاذا عاد ـ حرم هذا الحق الى الابد .

من كان منكم لم ير .. فقد رأى آخرون ، مرشحا غير محترم .. كان سيصير نائبا محترما .. ! يقف أمام لجنة الاقتراع بأحد أقسام البوليس ، ويشطر الجنيه شطرين ، ثم يعطى للمقترع نصيبه ، ويرسل معه رسولا ، يتأكد من انتخابه ، فاذا عاد تسلم نصف الجنيه الثانى ... !

يحدث هذا ـ علنا ، وأمام قسم البوليس وبعض رجاله ..

ان نصف الجنيه كان فى المعارك الانتخابية الاخيرة ، خطيبها

الساحر ، وفارسها المغوار ، وسيظل كذلك حتى نقضي عليه، أو يقضي علينا .. !

وبعد ، فان كثيرين يحلو لهم أن يعزو فشلنا القومي الى ضعف الرقابة البرلمانية على الحكومة .. ولكن أية رقابة هذه التي نتهمها بالضعف ، اذا كان البرلمان نفسه لم يوجد بعد .. ؟

ان الحياة البرلمانية الحرة الطليقة المنتجة ـ لا تزال مقرنة بالسلاسل التي ذكرناها ، والتي نعيدها لك كي لا تنسى ..

ا ـ القيود البرجوازية ..

ب ـ نفوذ التفاتيش ، وآلهة الاقطاع ...

ج ـ اغراء الناخبين بالرشوة

د ـ الرغبة التامة في التزييف

هـ ـ ضعف الايمان بصلاحية الشعب للاختيار

و ـ الدوائر المغلقة ...

ز ـ قوائم الترشيح ، وسيطرة العصبيات ..

وحدث نتيجة لهذا ، ان نظام « حكم الاسر » الذي كان قائما في العصر البدائي وفي الامبراطورية الرومانية القديمة .. صار هو الحكم القائم في مصر .. !

فالذين يسيرون الانتخابات بأموالهم ونفوذهم هم حملة « السندات » وابناء الذوات .. والبرلمانات عندنا لاتمثل الشعب كما تمثل الاسر الكبيرة ، والبيوتات الشريفة .. واذا كان البرلمان هو الذي يثمر الحكومة استطعنا أن نعرف نوع الحكومات التي تتعاقب علينا ..

لقد طال بنا الجدل، والخلاف حول لون الحكم في بلادنا .. أهو دايمقراطي .. ؟ أم هو اتقراطي؟

ولكن بعد استعراض الوضع النيابي عندنا على هذه الصورة

لا نشك فى انه لا ديمقراطى ـ ولا اتقراطى ...

انه شيء آخر استعرناه من القدم ـ هو بالاتقراطية اشبه ـ واسمه يا ابناء وطنى ـ حكم الأسر ...

ولقد كان الركود ، والاهمال أثرا محتوما لكل انتخابات تجرى على النمط الكريه الذى شاهدناه حيث تثمر ندوات أعيان ..

خطر لى أن اقف على مدى اهتمام الاعضاء بحضور جلسات البرلمان .. ومددت يدى نحو المضابط اسألها واستفتيها .. فوجدت حشدا كبيرا من النظائر والاشباه لهذا الاحصاء الذى ستقراه الآن .. وأنا انقله اليك من مجموعة مضابط دور الانعقاد العادى الواحد والعشرين فانظر :

رقم الجلسة	نسبة الغياب
الرابعة	٥٤ شيخا
الخامسة	٣٠ شيخا
السادسة	٥٠ شيخا
السابعة	٤٠ شيخا

جلسات تعرض فيها سياسة الامة ، ومشروعاتها .. ثم يغيب عنها خمسون عضوا ـ او اربعون

كيف يحدث هذا ؟ وهل كانت مشاغل حضراتهم على ميعاد حتى يتغيبوا جميعا .. ؟

لعل حضرات الاعضاء حريصون على وقتهم ، فهم لا يضيعونها فى حضور جلسات لا جدوى لها ...

وتعقبت المضابط ، وواصلت البحث خلالها فوجدت ان الجلسات التى تنظر فيها المشروعات الجليلة الخطيرة المحرجة تظفر بنسبة كبرى من الغياب فى احايين كثيرة .. وهنا يكون التغيب طبقا لخطة مرسومة لوقف المشروع وتعويقه حين

يصير العدد غير قانوني . أو فرارا من التورط في مخالفة الحكومة ومعارضتها .. !

واللجان البرلمانية هناك غليظة الاحساس وبطيئته بحاجة الشعب وآلامه .. ولانكاد نلتمس دليلا لذلك .. حتى نفر من كثرة الأدلة وازدحامها .. وحسبنا مثلا مشروع قانون تقدم به الشيخ المحترم ـ محمد خطاب بك بشأن استعمار الاراضي المستصلحة ..

ان قصة هذا المشروع . . قصة كثير من المشروعات الصريحة التي اتخذت من سراى البرلمان ضريحا ..!

وفي هذه الخطوات تثوى قصته ، وقصتها ...

١) قدم المشروع في ١٨ اكتوبر سنة ١٩٤٥

٢) عرض على خمس لجان ـ الاقتراحات، المالية، الشئون، المالية مرة أخرى، العدل رقم ٢

٣) اختصر من ٤٨ مادة الى عشرين مادة

٤) لا يزال المشروع تائها حيران ، منذ عام ١٩٤٥ الى عام سنة ١٩٥١ .. ونحن نخط هذه السطور ، وقد حددت له جلسة يقترع عليه فيها من مجلس الشيوخ ولكن احساسنا يرفض التفاؤل .. ونتوقع أن يرتطم المشروع في صخرة .. أو يسقط في حفرة .. لماذا .؟

لنفس الاسباب التي جعلته يهمل ، ويدس في الاضابير كل هذه الاعوام .!

وتتلخص في أن المشروع شعبي يهدف الى تحريم بيع الاراضي الحكومية التي تستصلح ، للمالكين .. وبيعها فقط بوسائل ممكنة للمعدمين الذين لايملكون شيئا ..!

لقد حدث أن كانت الحكومة تستصلح الارض وتعدها للزراعة ـ فيقفز بعض الكبراء والباشوات ويشتريها بأبخس الاثمان .. !!

فيصادف مثلا ـ أن يشترى قارون كبير ضيعة واسعة من هذه الارض بسعر الفدان الواحد عشرة جنيهات ، ليقتنيها ، أو ليبيعها بعد حين يسير بسعر الفدان الواحد سبعمائة جنيه.!

فلو ان الناخب وجد الفرصة الواعية الحرة التى يختار فيها نائبه ، أو شيخه ، فاختارهم من الذين ينوءون بمثل أعبائه، وبلوائه .. لما مكث مثل هذا المشروع أكثر من اسبوع .

واذا كنا نبغض الظروف التى تجعل من الناخب مطية تسخر وتذال .. فلا يفوتنا أن نقول للناخب نفسه: انت ايضا مسئول لماذا لا يستعمل المثقفون حقهم فينتخبوا ..؟

ان الاحصاء الرسمى ينبىء بأن الذين ينتخبون من عام ١٩٢٤ ـ الى اليوم هم الاميون من عمال وفلاحين ـ واذا ظللنا نحن الذين أخذنا من الثقافة بحظ. متخلين عن التزاماتنا قبل الحياة النيابية ، فهذه أحسن وسيلة ننتحر بها ، وتنتحر بها البلاد

وأخيرا ـ الحرية .. لا التسامح

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن حريتنا السياسية ، وعن الحريات جميعا .. حرية النقد، والفكر ، والمعارضة ..

وبقى شىء يجب أن يختم به هذا الفصل ..

لقد لاحظ القارىء اننا لا نخص بحديثنا فى هذا الكتاب الشعب وحده ، ولا الحكومة وحدها. بل هما معا .. وهذا ثمرة اعتقادنا بأنه فى الامكان أن يقوم بين الحكومة والشعب تكافل صادق يحقق للجماهير كل أهدافها .. ولكن الحاكمين عندنا هم الذين لا يريدون .. وحين يتفضلون بمنح الشعب شيئا من حريته، فباسم التسامح والعطف .. لا الواجب والحق ..

ونريد الآن تحديد مطلبنا بالحرية، لا التسامح. فالتسامح شىء يعتمد على الرغبة ، والتفضل .. أما الحرية فحق محتوم ..

والتسامح يثمر هبة يمكن استردادها .

والحرية تثمر حقوقا مكسوبة خالدة ..

والحاكم الذى يمكننى من حق باسم التسامح يستطيع أن يسلبنى نفس الحق باسم التعصب

ويوضح الفارق بين الحرية والتسامح ، رجلان كافحا من اجل الحرية كفاحا باسلا .. هما توماس بين ، وميرابو .. يقول « بين » :

«ليس التسامح عكس التعصب، بل هو تلفيق له ـ وكلاهما تحكم واستبداد ، فالتسامح يزعم لنفسه حق منح الحرية، والتعصب يزعم لنفسه حق منع الحرية(١)»

ويقول ميرابوا : ـ

« ان الحرية تبلغ من القداسة حدا تبدو فيه كلمة التسامح كأنها نوع من الاستبداد لان السلطة التى يتراءى لها أن تتسامح ، قد يتراءى لها أن تتعصب . »

هذا كلام جليل ، ويجب أن نؤمن أعمق الايمان اننا ـ نحن الشعب ـ لن ننال الحرية ، بل ولن نكون لها أهلا . حتى تكون الحرية ، لا التسامح ـ المحور الذى تدور حوله حياتنا ، وتناط به وجهتنا .

ان الحاكم الذى يتسامح مع أمته متأله دعى .. وهو لا يوجد الا فى الامم التى تسودها فلسفة البر والاحسان والخيرات .. هنالك يتكىء على أريكته ، وينفخ أوداجه ، ويعلن أنه يمنح رعاياه وعبدانه ما يجود به من حرية وحق ..!

أما الحاكم الرشيد ، فانه يجل الحرية عن أن يبذلها كما لبذل المنح والصدقات .

---

(١) كتاب حرية الفكر ـ ج ـ بيورى

ان « توماس بين» يصعد بالحرية الى قمة الاجلال حين يضرب للتسامح هذا المثل ..

« لو أن أحدا قدم الى برلمان اقتراحا بمشروع قانون يسمح لله أن يتقبل عبادة اليهود والاتراك أو مشروع قانون يمنع الله من قبول عبادة اليهود والاتراك لكان ذلك تجديفا فى حق الله وكفرا به .. »

فهؤلاء الذين اتخذوا الحرية لهوا ولعبا ـ والذين يتجشأون كل يوم قانونا يسمح للشعب بنصيب ضيئل من حريته وقانون يحرم عليه منها كثيرا لا يقدرون الحرية قدرها ، وهم يجدفون فى حقها ، وفى حق الشعب تجديفا وقحا عنيفا . .

ومن أسف أن الشعب هو الذى يحرضهم على ذلك ..! فأفراده فى تعاملهم المادى والادبى يقيمون هذا التعامل على أساس من التسامح لا الواجب ويبدو ذلك واضحا فى مسائل العقائد والتقاليد والفكر .. فأقصى ما نسمح به لانفسنا فيما يمس هذه ـ هو التسامح ، والتسامح كثير ..!

ومنشأ هذا التزمت أننا ضعفاء ، فاقدو الثقة بأنفسنا ، واذا كان فاقد الشيء لا يعطيه فقد عجزنا عن الثقة بما فى الحقائق من قوة ذاتية تكفل لها الغلبة والبقاء . ومن ثم جعلنا وسيلة حمايتها الامتلاء ، لا الاقناع .. والتسليم لا الاقتناع .. وحرمنا الفكر حقه فى الحرية ، ومنحناه قليلا من التسامح . وبسبب هذا الغباء نضبت الحياة من تقاليدنا وأفكارنا .

يا ليتنا نصغى لهذا النبأ ونعيه ...

فقد ذهب الى الرسول عليه السلام نفر من أصحابه ، وقد استطيرت ألبابهم روعا ومخافة وقالوا له :

ـ يا رسول الله . أن أحدنا ليجد فى نفسه مالأن يحترق حتى يصير حممة ، أيسر عليه من أن يتلفظ به .. مشيرين بهذا

الى ما كانوا يجدونه فى أنفسهم من شك عاصف فى الله ، كما وضحت ذلك رواية أخرى للحديث .

فأجابهم الرسول :

ـ الحمد لله . . ! هل وجدتموه؟

هذا صريح الايمان . !

هنـــا رسول كريم يدرب الناس على الحرية ، لا التسامح

لقـد كان قادرا على أن يقول لهم : لا بأس ، عفـا الله عنكم . . أو سيغفـر الله لكم . وهذا هو التسامح . .

ولكنه كان أكثر اجلالا للحرية ـ حتى حرية الشك ، والاسترابة فاعترف بها ، وجعلهـا محض المعرفة ، وصريح الايمان ـ وكان بها حفيا . . !

ذلك أنه يعلم أن الحرية حق للناس ، وان تمتعهم بهذا الحق كاملا غير منقوص ، هو أفضـل الوسـائل لترقية انسانيتهم ، وتعلية نزعاتهم ، وهدايتهم الى الحق ، وتثبيتهم على الهدى ـ ويعلم ان احتـرام حرية البشر ينعش فيهـم كل قوى الفضيلة والخير والجمـال ، فلم يتسامح معها ـ بل سلم بها ، وزكاها .

***

ان اليوم الذى يرفض فيـه الشعب أن يساوم على حريتـه أو يتنـاولها من أكف التسامح ، والاحسان ـ لهو اليوم الذى يبلغ فيه رشـده ويقف على قدم السوائيـة الفاضلة مع الشعوب الحرة ، والعالـم المتحضر الكريم

***

وقبل أن ننهى هذا الدفاع عن الحرية نقـول : انه اذا كان فى تصويرنا للكبت الذى نعانيـه مبالغة ـ ، فهى مبالغة طفيفة . واذا كان فيه قصور ، فهو قصور كبير . . !

ونحن على العالمين لاننسى ابدا تلك الجهود الضخمة التى بذلت منذ ثورة «١٩١٩» فى سبيل المصرية ، واذا كان الاستعمار الرجيم قد نجح فبعد عزم هذه الجهود وضللها ، فلا بأس ، ولنبدأ من جديد .

***

ولقد تركنا الحديث عن نوع الحرية المرتبطة بغريزة الاقتناء الى الفصل الثانى من كتابنا — من هنا نبدأ — فهناك يستبين لنا اثمارها وارتباطها الوثيق بحرية العمل وحرية الضمير ..

ان غريزة الاقتناء يناط بها تحرير البشر من اغلال الضرورات وليس نشاطها كما ذكرنا فى حديث الفصل الاول خاصا بطبقة من الناس دون الآخرين . كما انه لا يتحتم احتواش التفاتيش والضياع ..

ان اقتناء وسائل الحياة الكريمة هو الضرورة الكبرى التى تهتف بها اليوم حضارة الانسان

***

وبعد ، هل نحن جادون فى نشدان الحرية ؟

اذن ، فلنوجد الشعب الذى يستطيع ان يتقبل أمانتها ..

الشعب الذى تثق به الحرية .. ويثق بها .